(٥٧)

إشراقات جديدة

أم دُعّش

مجدى محمود جعفر

دراسة

شمس الدين موسى



الهيئة المصرية العامة للكتاب
٢٠٠٣

الإهـداء

إلى.. أولادى

محمود، عبدالرحمن، محمد

أرجو لكم حياة ناعمة، هادئة، مستقرة..

مجدى

ديرب نجم . الشرقية

فى أكتوبر ٢٠٠١م



أُمّ دَغْس

(١)

بدت لنا على غير عادة النساء العربيات - والبدويات على وجه الخصوص - ممصوصة كعود قصب، يابسة كعود حطب، كادت الرياح أن تذروها - لولا أن اتكأت على جدار البيت وراحت تتفحصنا واحداً تلوالآخر بعينيها الضيقتين من خلف "البرقع"!

.. لم تزل آثار السفر على وجوهنا، والحقائب أثقلت كواهلنا، والعرق ينز من جباهنا، وأنوفنا.. تنظر لنا بعينين حادتين..

- "مصريون"؟

نعم

- "ولماذا جئتم"؟!

بحثاً عن لقمة العيش يا خالة.

زامت، وضيقت ما بين حاجبيها، وتمتمت بكلمات لم نتبينها ثم قالت :

- "من خرج من داره قل مقداره "!

ألجمتنا عبارتها، وكدنا ننسحب، لولا أن تذكرنا أن أصحاب البيوت يرفضون " العزاب " سكاناً، وكل من سألناه دلنا على "أم دغش ".

قادتنا إلى غرفة فوق السطوح - أقامتها بجوار برج للحمام - ضيقة الغرفة كزنزانة، ارتفاعها لا يتجاوز المترين، شباك صغير ينفذ منه الضوء بصعوبة، نصف معتمة، رغم قربها من الشمس، فالشمس تكاد تلامس سقف الغرفة المصنوع من الصاج القديم الصدئ ..

ما كادت أقدامنا تطأ عتبات الغرفة حتى هب هواء ساخن، راكد، ورائحة عفنة، انكوت وجوهنا، ونفرت أنوفنا ..

قالت :

- "بالماء والصابون تنظفونها " !

قال أحدنا :

ولا نهر النيل ينظفها!

نظرت إليه وقالت :

- "النيل " .. النيل ما عاد يجرى "! ..

قال ضاحكاً :

والله العظيم تركناه - وهويجرى!!

نظرت إليه، وشردت قليلاً، ثم قالت :

- "النيل توقف من عشرين سنة "!!

.. وما كادت تنصرف، حتى نزعنا ملابسنا، وفتحنا صنبور الماء، ورحنا نغسل أرضية الغرفة وجدرانها ونغنى " مصر .. مصر .. مصر هى أمى، نيلها هودمى .. شمسها فى سمارى، شكلها فى ملامحى، حتى لونى قمحى، لون خيرك يا مصر "!

(٢)

ما كدنا نفرغ من تنظيف الغرفة، وصب الماء على أجسادنا، حتى جاء ولد صغير دون العاشرة أوأزيد قليلاً .. وقال :

– أمى تقول لكم لا تقربوا الحمام، وأيش جبتم معاكم من مصر!!

أنت دغش؟

– نعم .

راح كل ينقر على ما معه ونغنى ..

دغش .. يا دغش .. حلويا دغش ..

أخذ الولد يضحك، ويغنى معنا، ولكنا وجمنا، وسكتنا فجأة، حينما رأينا أم دغش على بُعد خطوات منا، فلم نشعر بوقع أقدامها على الأرض، وأسرعنا إلى حقائبنا نفتحها، ونخرج مافيها ..

:فطير، عسل نحل، جبنة قديمة، ..

نظرت إلى الفطير والجبنة القديمة، وأطالت النظر إلى الفطيرة المستديرة كقرص الشمس وقت الغروب وقالت :

- "من وين أنتم فى مصر "؟

من الشرقية !

ضحكت، لأول مرة - نراها تضحك .. وقالت :

" -أنتم اللى عزمتم القطر " :

ضحكنا وقهقهنا، وقلنا :

من قال لك يا أم دغش؟!

تناولت الفطيرة، وبعض العسل والجبنة القديمة، وآنستنا بإبتسامة رضا بدت فى عينيها، وريثما انصرفت رحنا نغنى :

أنا المصرى - كريم العنصرين ..

(٣)

مع قرآن الفجر تصعد أم دغش إلى السطوح، تدخل برج الحمام، وتبقى مع الحمام حتى شروق الشمس، ولا

ندرى إن كانت تنوح أم تهدل، يأتى صوتها همساً أحياناً، وزعيقاً أحياناً، أوقاتاً تبكى وأوقاتاً تضحك، تناغى الحمام وتلاغيه، يقف على راحتى يديها، وفوق رأسها، وعلى كتفها، يحلق حولها، منظر جميل وبديع يبدولنا من الشرفة الصغيرة ..

.. أم دغش تلتقط حبات من الحبوب بفمها أوقطرات ماء وتلجه فى منقار فرخ الحمام الصغير .. وقبل غروب الشمس تجلس معه لساعات، ولا ندرى متى نمت العلاقة بينهم ولا كيف فقهت لغة الطير؟!

.. فما يكاد الحمام يشعر بقدومها حتى يحلق حولها، ويتقافز طرباً، كأطفال صغار - يستقبلون أمهم بعد غياب، أوكعاشق يقابل محبوبته ..

.. كنا نحترم تلك العلاقة، ونحاول ألا نزعج أم دغش وحمامها، ففى حال وجودها لا نصدر أصواتاً - ونلتزم الصمت المهيب، وأم دغش - كشفت لنا الأيام - عن عصبيتها - ومزاجها الحاد، تشتمنا أحياناً بلا سبب .. ولا

يجرؤ أحد منا على الاعتراض، وأم دغش لا تكون فى حالة سوية إلا وقت وجودها مع الحمام ..

تهدأ نفسها الثائرة وتستكين، يمتص الحمام ثورتها، ويشيع فى نفسها البشر والسرور، وكنا إذا أردنا منها شيئاً أجلناه لبعد قعدتها مع الحمام، ففى هذا الوقت لا ترفض لنا طلباً ولا تؤخر لنا أمراً ولا تبخل علينا بشىء، وتكون طيعة، لينة، هادئة ..

.. أقسم أحدنا أنه رأى - أم دغش - تصنع جناحين كبيرين من ريش الحمام، وتقيسهما على ذراعيها - وتحدانا - أن نتسلل إلى البرج فى الليل - وسنرى الجناحين معلقين على الحائط، وقال أنه لا أثر لريش أولزغب فى المكان، وأم دغش رأيناها أكثر من مرة تنتف ريشاً وتنزع زغباً، وقادنا زميلنا إلى صندوق الزبالة بجوار البرج - فلم نر أثراً لريش أولزغب - هل صدقتم؟!

قلنا :

من يدرى .. عباس بن فرناس أول من حاول الطيران وفشل وقد تنجح أم دغش!!

(٤)

ما كدنا نضع رؤوسنا على الوسائد حتى نهضنا فزعين على صراخ الولد دغش وطرقاته على الباب

- الحقوا أمى تضرب أبويا!!

صكت الكلمة آذاننا، وتلاقت أعيننا فى استنكار، ونهضنا، حفاة - عدونا وبسرعة البرق وصلنا للدور الأرضى - لنرى أم دغش مُمسكة برجل مُسن، كنا نظنه أباها - كشفت عن مؤخرته، وأطلقت عليها خرطوم الماء، وكانت تقرعه عليها وتشتمه وتلعن الأيام السوداء .

والرجل المسن منكمش كالطفل، وعندما حاولنا أن نتدخل، هبت فينا كالمسعورة، وأطلقت خرطوم الماء فى وجوهنا، وراحت تسبنا، ولا ندرى لماذا أخذت تسب المصريين وتجرى وراءنا كالمجنونة ..

عرفنا فيما بعد - أن الرجل العجوز - أوالشايب كما يقولون - هوزوجها - وعلى هرمه لا يفيق من سكر ولا يتحكم فى عملية الإخراج، ويعملها على نفسه فى الشارع أوفى الفراش!!

(٥)

كل يوم يمضى نكتشف فيه شيئاً، ونعرف عنها جديداً، والجديد والمدهش هذه المرة - أن أم دغش مصرية!!

رحنا نضرب كفاً بكف - وما كنا لنصدق أنها مصرية - لولا أن أكد لنا دغش أنها مصرية مائة بالمائة وأننا أخواله!

.. انتظرنا أم دغش قبل أن تدخل البرج وقلنا لها :

لماذا تكرهين المصريين وأنت مصرية؟ !

كان الحمام يحلق حولها، ويحط على رأسها وكتفيها، كعادته عندما تهل، أمسكت بحمامة، وراحت توشوشها بكلمات لم نتبينها، ثم أطلقتها، فانطلقت الحمامة، واستدارت إلينا وقالت:

- كل يوم - من عشرين سنة - وأنا أحمل حمامة رسالة أبعث بها إلى مصر، وكل يوم أنتظر، لا الحمامة تعود ولا الرد يصل!!

وتركتنا أم دغش ودخلت، وأغلقت الباب، جلسنا بجوار البرج نحاول أن نصغى لبوح أم دغش للحمام ..

سرب من النمل يحمل كسرة خبز جافة ويتحرك صوب البرج، سمعنا تحذير النملة لزملائها من سليمان وجنوده فى قرآن المغرب الذى يُتلى بالمسجد القريب، وحديث الهدهد، والجان، والرجل الذى عنده علم، وأبداً .. أبداً لم نتبين حديث أم دغش للحمام!

(٦)

قالت أم دغش :

- "باعونى أولاد الـ ... "

"-أبويا، والعمدة، والمأذون،، وطبيب الصحة، وشاهدا العقد ...... و......... ! "

"-قبضوا الثمن ورمونى للقيظ والحر والصحراء والبداوة والحياة القاسية، ورجل مزواج، فارغ العينين، يكبر أبى سناً، ويقارب جدى فى العمر "!

"-عشرون عاماً عشتها معه، ما شفت فيها راحة "!

- "كنت أتمنى أن آكل يوماً وأجوع يوماً فى مصر، أرقد فى عشة على النيل مع بائع فجل أوسائق عربة حنطور أوأعيش عمرى كله عانساً بدون زواج "!

"-امرأة جاهلة مثلى، إذا خرجت أبعد من ها الشارع تتوه "!

" -كانت رسائلى - عبر الحمام - فلولاه لمت كمداً - ما تركت أحداً فى مصر إلا بعثت له رسالة - حتى أولياء الله الصالحين " ..

مرة نمت - ودموعى على خدى - حلمت أنى حمامة طايرة - ظللت أطير وأطير، حتى شفت النيل، نزلت فرحانة - أبل ريقى، صحوت - على صوت الولد دغش وهويبكى حضنته، وقعدت أبكى، وخلعت غطاء رأسى ودعوت على اللّى كانوا السبب - ومن ذاك اليوم - وأنا عندى أمل أروح مصر وأشرب تانى من النيل!!

(٧)

على غير عادتنا رجعنا من الشغل مبكرين، لنسمع ونحن فى أول الشارع صراخ أم دغش، ونحيبها وعويلها،

ارتعدت فرائصنا، ووجلت قلوبنا لما رأينا الولد دغش ملقى على الأرض يغوص فى دمه، شقت جلبابها، ولطمت خدها وعفرت وجهها بالتراب ..

قال صبى صغير للعسكرى :

- التقطت أرقام السيارة.

قالت امرأة :

-كان السائق هندياً يقود بجنون!

بصعوبة بالغة خلصنا الولد دغش من أمه التى احتضنته بهستريا، وحمله أحدنا إلى الداخل، وحملنا أم دغش عُنوة، وصعدنا بها إلى السطوح .. أدخلناها برج الحمام وأغلقنا عليها .. سمعنا نوح الحمام وبكاءه ...

وفى اللحظة آلتى كان يخرج فيها دغش مُحملاً فى النعش . كانت أم دغش تقف على قمة البرج، تلبس الجناحين، يغطى الريش والزغب مناطق كثيرة من جسمها العارى، وحولها الحمام يحلق وينوح - وبينما الناس تتأهب للسير بالنعش - صحنا فيها :

ارجعى .. ارجعى يا مجنونة

جدتى والطائر

فى البراح الواسع أمام الدار، تجلس الجدة، فاردة ساقيها لشمس الصباح وبجوارها راديوالعائلة العتيق، لا يتحول مؤشره عن إذاعة القرآن الكريم، ومسبحة فى يدها لا تمل من فر حباتها ومصحف متآكل غلافه، مفتوح أمامها لا تقلب صفحاته أبداً، وكتاكيت صغار تتقافز حولها، ودجاجات تنقر فى الأرض، ونساء عجائز يأتين، واحدة تلوأخرى، يتحلقن حول الجدة ويثرثرن ؛ تنشغل عنهن بالنظر إلى النخلة العالية، ولحفيدها طالع النخلة. " تزر "عينيها، وتسلط بقايا الشوف فيهما عليه، وهويتسلق بخفة قرد، ورشاقة أرنب ".

تُسمٌ الله وهى ترى العجائز "يبريشن " بأعينهن، التى تساقطت أهدابها وتستعيذ برب الناس، من عيونهن الضيقة _ التى خبا ضوؤها، ومن الوسواس الخناس، الذى يوسوس فى صدورهن.

.. ينتقى الولد _ بلحات _ وينزل بخفة ويجرى فى اتجاه الجدة، يدس فى يديها البلح، تمسك البلح، تقلبه فى يديها وتقرب بلحة من عينيها، تتشممها بأنفها تمتعض وهى تذوقها بطرف لسانها، وتجرب أخرى، وثالثة.. البلح كله يابس وعطن، تتنهد، وتتمتم بكلمات غير مفهومة، وتتحسر على أيام الجد.

مساحة الظل بجوار الحائط تتكمش، تسند الجدة جذعها للجدار، وتسحب ساقيها، تنظر لشمس الضحى العالية، والعجائز حولها، يثرثرن، ويشكين عقوق الأبناء، وإهمال زوجاتهم لهن.. تتشغل عنهن بالنظر إلى النخلة العالية، الولد الصغير "يخمش" بأسنانه البلح "الصيص" ويبكى _ :

- أنا جوعان!!

يمصمص العجائز شفاههن، ويلوين بوزهن، وتتلاقى عيونهن فى استنكار، تسترق السمع، تُمنى نفسها بأن تسمع وقع أقدام أولادها وزوجاتهم فى الدار.

- صرير باب حجرته في الفجر _ كان يجعلهم ينتفضون فى مضاجعهم، وكركرة ماء وضوءه، ودقات عصاته على الأرض. فور أن ينزل عن سريره، ويضع قدميه فى " الشبشب "تدب الحياة فى الدار، الفطور كان فى البكور، والشمس كانت تطلع فى دارنا مع الفجر، كان الخير فى كل بقعة فى الدار، اللبن " يتسرسب " من ضرع البقرة فى الزريبة يملأ الدلوالكبير، والبيض من تحت الدجاج يملأ "السبت الخوص"، أسراب الأوز والبط والدجاج.

يطرق الولد بيده على صدره :

- أنا جوعان يا جدتى!!

تهدهده الجدة، وتقول فى نفسها :

كانت الواحدة منهن تفز من فراشها مع أول طرقة على الباب!

ولكن.. يوم أن غاب، غابت الشمس، ما عادت تطلع مع الفجر من دارنا، وما عاد الفطور فى البكور.. كل شىء ينحسر، وينسحب ببطء، الأرض تتكمش وتضيع قيراطاً وراء قيراط، قسموا عرق الرجل وتعبه _ وباعوه بأبخس الأثمان، تحول عرق السنين إلى قمصان نوم للنسوان، وعطر، وأساور " تشخلل " فى أياديهن، كل امرأة فى حجرتها ثلاجة، وتلفزيون، وغسالة، ومكنسة.

خلت الزريبة، وخلت الصوامع، وركب الغرباء الأرض.

يصرخ الولد :

– أنا جوعان.. جوعان يا جدتى

تتسلل العجائز واحدة تلوأخرى، وتقرأ الجدة فى عيونهن _ التى تشبه مؤخرات الحمائم، الشماتة، الشمس توسطت السماء، وانحسر الظل عن الجدار، تنهض الجدة، متكئة على كتف الولد، وتسير به إلى الدار والصمت يحط إلا من

صوت بومة لعينة تنعق فى الزريبة وغراب أسود، احتل عش الحمام، يسيل من منقاره، مح البيض وزلاله، ينقبض قلب الجدة.

طائر غريب يحوم، تتوقف، تنظر للطائر، يحلق فى صحن الدار حول المصباح المطفأ المتدلى من السقف، ووضع الذباب عليه البيض فامتلأ عن آخره، بل واستراح الذباب على الحبل الذى يحمل المصباح ـ وعلى المروحة المثبتة على الجدار، ينتظر الفقس، الطائر صغير فى حجم عقلة الإصبع، استغفرت الجدة، واستعاذت، ومضت إلى غرفتها دست يدها ببطء فى " السيالة " أخرجت بصعوبة مفتاحاً كبيراً، والصبى يرقص قلبه فرحاً وعيناه تبصان ليد الجدة وهى تدخل المفتاح فى كالون الدولاب بالحائط، ومُمنياً نفسه، بقطعة حلوى، أوبيضة مسلوقة، وقطعة خبز، قبل أن تدير المفتاح أحست بضلفة الدولاب " تزيق "، شدت الضلفة برفق، أحست بانعدام المقاومة، وكانت حركة الضلفة النصف دائرية وسرعتها أقوى من قوة شد الجدة.. تفزع الجدة، ويقع قلبها فى رجليها،

فالدولاب خال _ لا علب الحلوى، ولا المربى ولا أقماع سكر النبات، ولا أرغفة الخبز الطرية، وبضع مئات من الجنيهات _ هى كل ما تملك _ بعض حقها فى الميراث _ الذى أخذته بصعوبة وباقى ميراثها توزع على الأولاد فى حياتها غصباً .حتى الكفن الذى اشترته منذ زمن بعيد، واحتفظت به فى الدولاب، مطوى نظيف معطر، اختفى!!

تضيق ما بين حاجبيها فتنتفخ كرمشات الجلد كبالونات صغيرة، ويتلاحم خطا الحاجبين بشعرهما الأبيض المتناثر.

يجرى الصبى إلى حجرة أبيه، يطرق الباب بعنف، يصرخ :

– جدتى، جدتى سُرقت، الحقوا جدتى؟!

تتثاءب أمه، ويأتيه صوتها وهى تتقلب على السرير، تعنفه وتنهره، يجرى إلى غرفة عمه، تزجره زوجة عمه، بوجه أصفر، يرمح إلى جدته، يحوطها بذراعية الصغيرين وقلبه يدق بعنف، تفترش الجدة الأرض، والعرق يرشح من

مسام جسمها التى اتسعت على الجلد. فالمسام صارت كثقوب إبر الخياطة، يمسح الولد بكم جلبابه حبات العرق التى تجمعت فى ثنيات الجلد على الجبهة، وأسفل العينين، وعلى الخدين، سيول من ماء العين ومن عرق الجسم المالح، تتجمع فى قنوات حفرها الزمن على الوجه وأسفل الرقبة، يعلوصدرها ويهبط وتفتح فمها الخالى من الأسنان مع طاقتىّ أنفها لإدخال الهواء، يبكى الولد، جدتى، جدتى، بصعوبة _ تمتد يدها المعروقة _ تتخلل شعره، يشعر بارتعاشة يدها، وبعروقها النافرة، وفيما يعدوفأر على سقف الغرفة، ترى من فتحة الباب الموارب، الطائر الغريب، يحوم حول المصباح، ومع كل دائرة يكبر ويكبر، وقد صار بحجم الفأر، الذى يعدو، ويقرض فى "غاب" السقف.

يبحلق الولد فى عينى الجدة المفتوحين، يمرر يده أمام عينيها، لا يرمشان، يبكى، جدتى _ هل ترينني؟!.. تحاول الجدة أن تزدرد ريقها، لكن الريق قد جف، فتبتلع الهواء " فتزأط ".

ويشعـر الولد بأن عينيهـا قد انفلتتا من مـحـجـريهـمـا، فيجـرى إلى "القلة" ويكب الماء على وجهها وعلى شفتيها، تخـرج لسانها برأس رفيع أبيض جاف يلتقط قطرات ماء، ترطب الحلق الجـاف.. وبينما تُدخل قطة سوداء رأسهـا من النافـذة، تـروح عيناهـا للطـائر الغـريب الذى يكبـر.. ويكبـر ويصير بحجم القطة.

يصب الولد المـاء على يديه، وينثره على رأسهـا، ويدلك بيده المبللة بالمـاء فروة رأسهـا، يشعـر بسخونة رأسـهـا، في كي.

عـيناها تدوران فى الغـرفـة، يقـعـان على عـصـا الجـد المثبتة على الجدار وجلبابه الصوفى، وطاقيته والشال، ويبـدوفى الصـورة المـتـربة بشـاربه المـفـتـول وعـينيـه الباسمتين، تبتسم، فيطرب الولد لابتسامتها ـ صـارت له فترة يأتينى فى المنام، شهراً، أويزيد، لم يخلف موعداً ولم يتخل أبداً عن ابتسامته، وضحكته الحلوة، يأتينى أجمل ممـا كان عليه يوم العرس، شاباً عفياً، عليه ثوب أخضـر، يفتح لى ذراعية، باتساع المدى.

يهز الصبى الجدة، التى تعلقت عيناها بصورة الجد، وتلاقت ابتسامتهما، جدتى، جدتى، يفزعه صمتها، ويعكر صفوه نباح الكلب المتواصل خارج الدار، يشب على قدميه، ويمد ذراعه، وبأطراف أنامله :

يزحزح عصا الجد، ويقبض عليها، ويهم خارجاً للكلب، تستوقفه الجدة بنظرة عين وإشارة إصبع، يضع العصا بجوارها، ويخرج باحثاً عن حجر، وفيما كان الكلب رافعاً ساقيه الخلفيتين ويبول على الجدار، كان الحجر مُسدداً إلى رأسه. ليقفز إلى النافذة، رافعاً عقيرته بالنباح والعويل، ، كلما صوب إليه الصبى حجراً، علا النباح والعويل.. الطائر يحوم، ويحوم، ويكبر، ويكبر، ويصير بحجم الكلب الذى يعوى خارج الدار.

تتحسس الجدة عصا الجد، وتبتسم، تشير إلى الجلباب، والطاقية، والشال، يهرع الصبى، يأتيها بها، تتحسسها، تتشممها، تغمض عينيها، تتسال الدموع، تبتسم، تحاول أن تنزع جلبابها، يعاونها الصبى، تحشر جسمها فى جلبابه الصوفى " الكشمير " وتلم شعرها الأبيض وتحبك الطاقية،

تثنى الشال، وتبسطه، وتطويه، وتلفه حول رأسها، وبينما الحمار "يتمرغ" فى الفضاء خارج الدار وينهق كان الطائر يكبر ويكبر، ويصير بحجم الحمار الذى يفزع نهيقه الصبى، تتحسس العصا، تقبض عليها، يد على الجدار، ويد على العصا، تنهض، وتخطوخطوات، يفرح الصبى بجدته، ويضحك، يلف حولها ويصفق بيديه، يصفر، يدور حول نفسه، ويرقص، سارت إلى حجرة ابنها الكبير المغلقة، وطرقت الباب بالعصا بعنف، وجلاً فتح الباب بلباس النوم، ليندهش.. أمى!!.. أزاحته، ودفعت الباب، لتباغت بالكفن، نصفه ستارة على الشباك ونصفه الآخر ملاءة السرير تتمدد عليه زوجة الابن، انكمشت فى الركن القصى على السرير بجوار الحائط ورفعت ركبتيها إلى ذقنها وشدت القميص على قدر ما تستطيع لتستر ما يمكن ستره، وبينما تسير إلى السرير انكمشت الزوجة، تحسست الجدة الملاءة / الكفن، رائحة العرق وأثار الحب والليل، نظرت إلى المرأة المنكمشة والمنكوشة الشعر والنصف عارية، أغمضت الجدة عينيها، استجمعت لعابها، وفى

لحظة بصقت عليها، مرة، ومرتين، واستدارت إلى ابنها الواقف بلباس النوم مأخوذاً ومذهولاً، وفجأة _ ترفع العصا، وتهوى بها على أم رأسه، ليصرخ، صرخة مدوية، فيفزع أخوه وزوجته فى الحجرة المجاورة، ويجريان إلى مصدر الصوت، فتعقد الدهشة لسانهما وتسير الجدة بثقة، وتخطوبثبات، وبينما زوجة الكبير تمسح بصاق الجدة وتقول لزوجة الصغير :

- كبرت وعقلها خرب..

كانت لجدة، ترى الطائر الغريب، يحوم حول المصباح، وأصبح بحجم الفيل، وجلست الجدة، تنظر للطائر الذى يكبر ويكبر وينبت له جناحان، وفيما كانت الجدة مشدودة إلى الطائر كان الصبى يضع فى حجرها علب المربى والحلاوة وأكياس السكر النبات!!

الثـور

عندما دخل السيد المدير كان لم يزل يُعمل مقشته فى أرضية الغرفة ... مثيراً ذرات التراب.. ليتأفف، ويكتم طاقتىّ أنفه بمنديل، ويستدير قائلاً وهويصيح فيه بغضب:

- يا ثور.. لماذا لم تنظف الحجرة مبكراً؟!

التقطت أذناه الكلمة فاستطالتا، ضيق ما بين حاجبيه، دلى شفته السفلى الغليظة وكتم بشفته العليا طاقة أنفه، وسع ما بين شدقيه ما استطاع كاشفاً عن نابين أسمرين مدببين طويلين وأسنان بنية عريضة بينها فراغات.. كان

المدير قد استدار تماماً هرباً من التراب، معطياً ظهره لباب الغرفة،يلوح للمدرسين بيديه لاعناً القوى العاملة التى تعيِّن المعاقين والمتخلفين تاركة الأصحاء والأذكياء!!!

رمى بالمقشة، ودار حول نفسه، لاح له قفا المدير عريضاً نظيفاً .. غمغم .. ورجع للوراء وأسند ظهره للحائط وأغمض عينيه.

ولما وصل إلى أنف السيد المدير عطر الأبلة الجميلة مُعلناً عن وصولها، ألقى بالمنديل الورقى وصاح فى المدرسين بأن يمضوا إلى الطابور.

بللت ابتسامتها من بعيد جفاف قلبه، وأطلق عينيه لتسبح فى فضاء صدرها الرحب وهيأ يُمناه لتحتضن يُمناها .. وما أن اقتربت بقوامها الممشوق والتقت عيناها السوداوان بعينيه حتى اضطربت أنفاسه.

قالت بدلال ورقة :

اصطدمت بصيحتك الغاضبة وأنا أدلف من باب المدرسة فسقط قلبى فى رجلىّ.!!

أشار إلى الغرفة وقال :

– الثور!: هذا الثور الغبى لم يفرغ من تنظيف الغرفة بعد!

التقطت أذناه الكلمة مرةً أخرى فاستطالتا أكثر وتمددتا أكثر. وأصبحتا بحجم طبقين هوائيين. كزَّ على أسنانه، أرخى شفتيه، غمغم، هزّ رأسه الكبير يمنةً ويسرة .... وبينما يد المدير تحتضن يد الأبلة الرقيقة الجميلة ... أطلق صرخةً اهتزت لها الجدران وقفز بعنف وبكل ما أوتى من قوة غرس أسنانه فى قفا المدير وطرحه أرضاً!!!

القادم

سرى الخبر بين أهل القرية كما يسرى الماء فى الأرض (الشراقى) : والأرض عطشى، والماء شحيح، والزاد قليل، والجوعى كثير، والجوع أفعى... وها هو آت بعد غياب طويل... طويل... قالوا : إنه ركب بحاراً وبحاراً، ودرس فى بلاد الخواجات!!

عاب بذرة القطن، وتقاوى القمح، وشتلات الأرز، ونظام الرى. والدورة الزراعية.. وفى قراريطه القليلة، القليلة جداً.. أجرى تجاربه وأبحاثه. وحزم أمتعته وبرح يئساً من الحكومة، ومن الفلاحين، ومن مسئولى الزراعة وأساتذة الجامعة!!

مـواسم الأفـراح أنكرت بنات القـرية، فلوزة القطن ضـعـيـفـة، وتسَّاقطت أهدابهن مع نوار القطن، وتبـددت أحـلام الصـغـار فى أحـذية وجـلاليب، فـالأسـعـار نار ومصروفات المدرسة زادت.. وحشرة (المن) التى التهمت وسـواس القطن جـعلت الفـلاح يسب الحكومـة والمـبـيـدات الفاسدة وينعى عرق الأيام ومصاريف العام..

من فم إلى فم انتـقل الخـبـر، على رؤوس الخطوط، وتحت شجـر الصفصـاف وقت (القيلولة) وحـول (طبلية) الطعـام.. لا حديث إلا عن القادم بـأبحاثه الجديدة، وطرقه الحديثة،

قـال إمـام المـسـجـد للناس : لا خـيـر يرجـى من وراء الخـواجات!!، هاجت النـاس وماجت، فـالقـادم ليس بخواجة ولكنه فلاح!

تجمع أهل القـرية فـرادى وجـمـاعـات.. والتفوا حـول مسئول الزراعة.. الذى أسـرَّ لهم همسـاً بأن القادم ينوى أن يبدأ بقريتكم ليجعل منها نمـوذجاً للزراعـة الحديثـة ومثالاً تقتدى به كل القرى.

طارت الناس فرحاً ودعت للقادم ولمسئول الزراعة صاحب البشارة الطيبة.

- لم تُنسه الغربة أهله ولا ناسه....

- أصيل.

قالت إحدى الفلاحات لزميلاتها وهن يغسلن الملابس فى الرياح :

- سأبعث لزوجى بتلغراف ليأتى من الخليج!!

- خيراً تفعلين يا أخت، ملعونة الغربة، وبكرة الأرض تُطلع الذهب.

- وأنا أيضاً سأبعث لزوجى فى الأردن!

- والنبى حيلهم يتهد بره ويقل مقدارهم ويضيع عرقهم.

- الغربة كربة وتذل أولاد الأصول!!

- الناس تعمل أيه؟! الحياة هنا صعبة والمعايش غالية، وأنت شايفه الأرض، والحكومة لاترحم ولاتخلى رحمة ربنا تنزل !!

-أهوجى يحرسه ربنا ويصونه يفجر خيرها ويحقق الأحلام!

وقال طفل لزملائه وهم يلعبون الكرة الشراب فى الجرن :

- إنه قادم ومعه هدايا كثيرة، سيعطى كل طفل فى القرية جلباباً وحذاء وقميصاً وبنطلوناً، ويوزع حلوى وشيكولاتة! ويذبح كل يوم عجلاً، يوزع لحمه على أهل القرية الفقراء، ويدفع لنا مصروفات المدرسة، ويشترى كتباً وكشاكيل... و...

انتقل الخبر إلى أهالى القرى المتاخمة، على ظهور المطايا قدموا، ومرتجلين، يباركون ويهنئون، ويطالبون بحقهم فى خيرات القادم وعلمه، فللجيرة حق، ويوماً بعد يوم تتسع دائرة الأحلام وتكبر

"سيزوج البنات "!.. " ويعلم الأولاد "!.. " يشغل المتعطلين "!، " يبنى دوراً للمحتاجين "!.. يعطى المحروم

والمسكين وابن السبيل.. يمسح دموعنا.. يلملم جراحنا!.. "

الشـيخ يصـرخ فى الناس : لا خـيـر يرجى من وراء الخواجات.

ينصرف الناس عن الشيخ

مسئول الزراعة يعلن فى الناس : بأن من يرغب فى معالجة أرضه وزرعها بالطرق الحديثة والمزروعات والنباتات الجديدة ويستفيد بعلم القادم وخبراته ويرغب فى مشاركته بالأرض فليوقع على هذه الأوراق.

الشـيخ يصـرخ فى الناس " لا خـيـر يرجى من وراء الخواجات"..

تشيح الناس بوجوهها عن الشيخ ويقفون قطاراتَ وصفوفاً، يبصمون على الأوراق ويختمون بأختامهم..!!

على الموانئ تتدافع الناس لتنقل شاحنات الآلات الحديثة، وبذور النباتات الجديدة، وشرعوا فى مدخل القرية يبنون له فيلا أنيقة، وفى مؤخرة القرية يبنون مصنعاً كبيراً، فأوامر القادم على لسان مسئول الزراعة، تُنفذ بدقة، وريثما فرغوا من البناء ، جاء القادم بلباسه

الأنيق وحذائه الأنيق، وتأبطت ذراعه خواجاية وجهها بلون البدر، وشعرها سنابل قمح، استقبلهما أهل القرية بالأغاني والطبول، وفي أوج الاحتفال سأله الشيخ :

– ماذا ينتج المصنع؟

– قالت الخواجاية : العطور!!

وبينما فغرت الناس أفواهها دهشة، سأله الشيخ : وماذا تزرع الأرض؟

قالت :– الأزهار والورود!!

وبينما الشيخ يضرب كفاً بكف، انطلق القادم يبين للناس أهمية زراعة الورود وتصنيع العطور.

... وفي تلك اللحظة كان مسئول الزراعة يظهر على شاشة التلفاز متشنجاً : يبين للناس أهمية زراعة القمح!!!!

الثمن

حفاة كنا نجرى فى الوحل والمطر والويل لمن يقع .. نجرى وقلوبنا وجلة، وأنفاسنا لاهثة " اجرى يا واد اجرى ..

سيلحق بنا " على بُعد خطوات منا،لا تنظر خلفك .. اجرى " ويأتينا صوته المرعب " لن أدعكم تفلتون منى هذه المرة يا أولاد الـ.... "

وفلتنا منه هذه المرة، وأمسك بنا من قبل مرات ، وأشبعنا ضرباً، ولكنا أبداً لم نكف عن التسلل إلى الجنينة طمعاً فى سرقة العنب والبلح والبرتقال والخوخ والليمون،

فجنينة البيه لا أول لها ولا آخر، فيها من الفواكه ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، لا يحول بينها وبيننا سوى " حمد " الذى يخفرها، فكنا نبغضه ونخشاه وندعوعليه بالموت .

نأخذ ما نجحنا فى الحصول عليه من فواكه، نتقاسمها، ونتبادلها، فالعنب أحبه أنا، وليلى تموت فى البلح، وفى غفلةٍ من الزملاء أدس فى جيبها البلح وتسرب هى لى العنب، أنظر فى عينيها، وتنظر فى عينى، يدور بيننا حوار صامت خفى، أكتم ضحكة، فتوئد هى بسمة، ونعود إلى اللعب بعد أن نأكل،وليلى معى دوماً لا ضدى.

ويوماً بعد يوم .. بدأت ليلى تضيق بنا وبألعابنا، ظننت أن أحداً ضايقها أوأغضبها فأقسمت أن أعرفه، وأضربه، بل أقتله، فمن ذا الذى يجرؤ على مضايقة ليلى أوإغضابها!!، هوابن سنية القرعة .. أعرفه، لسانه برئ منه" .لا .. صدقنى .. أنا بس اللى تعبانة "

.. وانسحبت ليلى، فأحسستُ بأن اللعب فقد معناه، ورحت أرقبها وهى عائدة، شعرت بخواء غريب، وتضاءل الكل أمامى، ولم أتمالك نفسى فعدوت خلفها، ولحقتها

بالقرب من الجنينة، فاستوقفتها، ورحت أحادثها " ليلى ..

أحقا أنت تعبانه؟"

نظرت إلىَّ ونظرتُ إليها، تسلل إلى قلبى بريق عينيها، فأحسستُ به يختلج، عاجلتها بالحديث، همت أن تنطق، ولكنها فى آخر لحظة ترددت،ابتلعت الكلمات، ذابت على شفتيها، يحدثنى قلبى بأن ثمة شئ ما يقلقها، بأنها تحمل هماً فى قلبها الصغير، فقلت وأنا ألمح دمعاً يترقرق فى مقلتيها.

خبرينى ليلى عما بك، فأنا أفعل المحال من أجلك، ابتلعت ريقها وحملقت فى اللاشئ وقالت فى صوت كسير:

- أنا ..

"أنت ماذا "

وقبل أن تنطق، خرج " حمد " فجأة وانتهرنى قائلاً " قلت لك ميت مرة يا بن الملعونة ما عدت تمر من هنا " .. فعدوت، وأفزعنى أن أراه يأخذ ليلى من يدها .. ويسير

بها إلى داخل الجنينة، تسمرت مكانى فاغراً فاهى كالأبله، لا أصدق أنى سأصبح بدون ليلى بعد الآن، وقعت فى قبضته، الويل لها إذاً كل الويل، بكيت خوفاً عليها، ومن بعيد رحت أزعق بأعلى صوتى .. ليلى.. ليلى،لعلّ صوتها يأتينى فأطمئن عليها، فلم يتناه إلى مسامعى ما يؤكد أنه يضربها فصمت مخيف يخيم على المكان وسكون مرعب يلف الدنيا كلها، لا بد أنه قتلها، نعم، لابد أنه خبطها بيده الطرشة على نافوخها، فهوت، وماتت ، جلست أبكى تحت الصفصافة، ولا أدرى ماذا أفعل من أجل " ليلى " ولكنى أفقت دهشاً على ليلى بجانبى، وحجرها مملوء بالبلح والعنب والجوافة، فقلت دهشاً :أنت ليلى أم عفريتها، خبرينى .. ماذا فعل بك حمد؟ وأنى لك بهذه الفواكه، لَوت بُوزها وعلى غير عادتها جلست تأكل، ولم تعطنى شيئاً.

.. أيقنت أن حمد ذوقلب رهيف، وعزمت بينى وبين نفسى ألا أتسلل إلى الجنينة خلسة بعد اليوم، فأستئذنه فى قطف عنب أوثمرة جوافة، وجهرت بهذا الخاطر لليلى، بيد أنها لم تُبد رأياً.

.. وذهبت إليه أطلب منه العنب بيد أنه سبنى، وجرى ورائى، وكاد يضربنى، فضحكت ليلى وقهقهت، فتملكنى الحنق الشديد،وصفعتها على وجهها، فنحبت وأجهشت، وقفت أنظر إليها ورأسها محشورة بين ذراعيها، ودموعها تتساقط على خديها، أحسست بجرم ما فعلته، فجلست إلى جوارها أترضاها، ربت على كتفها، هدهدتها، مسحت دموعها، رفعت ذقنها لأعلى، نظرت فى عينيها المغرورقتين بالدموع، مررت بيدى على خدها، فكفت عن النحيب، انسابت يدى إلى عنقها،وقعت يدى على صدرها، فتلألأ لى قرصين من عجين، ارتجفت، وأنا أخطفهما .. وصرخت فى ضعف : بالراحة، وابتلعت ريقى وأحسست بخدرٍ لذيذ يتسلل إلى بدنى وأنا أضمها إلى صدرى بعنف – وصرختُ ملتذاً، حينما كان حمد يعدونحونا – فعدوت – ومن بعيد رأيته يتسلل وليلى إلى الجنينة، فظللت أبكى وأبكى ..وتمنيت لومعى سكيناً أغمده فى قلبه .

شموس

صغاراً كنا حين مددنا أكفنا للشمس، عراة قفزنا فى النهر لنمسك بقرصها المستدير اللامع .. بعيدة تلك الأيام بُعد الشمس عن الأرض.. كأسماكٍ خرجنا من النهر وأقراص الشموس على أكفنا الصغيرة، نجرى وقطرات ضوء تتسَّاقط من أجسادنا، وكلٌّ أحكم قبضته على شمسه وخبأها فى مكان أمين ليخرجها فى الليل!!

فى الليل تشاجرنا وتعاركنا، من سرق الشموس

يا أولاد الأفاعى؟

أوسعتها ركلاً ولكماً ولم تقر، باكية كانت تعدو، وأعدوخلفها، عثر قدمها بحجر، فسقطت وسقطت فوقها، ويدىّ على عنقها، اتسعت حدقتا عينيها عن آخرهما..

"هات الشموس يابنت الحرامية "

وكادت تموت بين يدىَّ لولا أن رأيت القمر فى عينيها، سقط فى عينيها حين عثرت، استحم القمر فى دموعها وبدا فى عينيها أكثر إشراقاً، وتألقاً، وصفاءً.

اختلج قلبى الصغير فى صدرى، ومددت يدى إلى خدها، أمسح قطرات الدمع التى تسَّاقطت من سماء عينيها الجميلتين.

فى الصباح : فرحاً أخذت سنتى التى نزعتها أمى من فمى، ومضيت إلى الشمس أناديها :

"ياشمس يا شموسة خدى سنة الحمار وهاتى سنة العروسة "

وكأن الأرض انشقت عنها وخرجت فجأة، أوكأنها سقطت من قرص الشمس السَّاقط لتوه من رحم الفجر،

رفت ابتسامة خجلى على شفتيّ وافتر ثغرها عن ضحكة حلوة، وما أن تجمع الأولاد حتى رحنا نتصيد شموساً من النهر!!!

انتظار

أمام الدار الواسعة، المطلة على الجسر، ومن خلفها مساحات شاسعة من الأراضى المنزرعة، كان يجلس إلى جانب جده، وجده شيخ كبير، تسللت الشعيرات البيضاء إلى رأسه، وانحنى عوده، وصار يابساً كعود الأذرة الناشف، وبصعوبة بالغة كان يميز ملامحه من وجهه الفاحم المحروق.

يقبع جده على المصطبة وحده، من بعد صلاة الفجر، ويبقى فى جلسته بثيابه المهلهلة إلى ما بعد صلاة العشاء، لا يقوم خلال هذه المدة إلى أن يرفع المؤذن صوته مُعلناً عن الصلاة.

يتكئ بيسراه على عصاةٍ صنعها من شجر الصفصاف، ويضع يُمناه على كتفه، ويسير به إلى المسجد، وطوال الطريق لا يكف عن التمتمة بكل الأدعية الموروثة والمحفوظة.

أحب جده فى وقت لم يجد فيه أمه، فهى مشغولة، مشغولة دوماً بالتنظيف للبهائم وحمل الروث السّاقط لتوه ولتصنع منه وقوداً، ولم يكن لديها الوقت لتلتفت له فيه، وأخوته كلهم فى المدرسة، عدا علاء الملتصق بأمه، ليمص ثديها الذى ترهل، وبطنها دوماً منتفخ.

لم يذكر أنه رأى بطنها سوياً أبداً، كما لم يذكر أنها تفرغت قط، ترش الماء أمام الدار بعد أن تكنسها، وتحيك الثياب، وترقعها، وتلج الحب فى مناقير الطيور، وتطهوالطعام وتنقله على رأسها إلى الغيط لأبيه الذى اتخذ من الحقل مرتعاً له، دوماً فى الغيط، فى الصيف وفى الشتاء، وفى الر بيع والخريف.. تمسك بجده لأنه الوحيد المتفرغ.. الوحيد الذى يسمعه فلولاه لا نفجر من الغيظ.. يهرع إليه فور أن يصحومن نومه وقبل أن يذهب

إلى الترعة ليغسل وجهه ليتناول معه لقيمات الفطور المقددة التى يغمسانها بالعسل الأسود، وبما تجود به أمه عليهما من بقايا لفت وفتات جبنة قديمة.

يحدثه جده الصديق عن أيام زمان، يجد نفسه مشدوداً إليه، يسمع حديثه بإنصات بالغ ويعى ما يقوله عن الإنجليز.. وسعد زغلول ويصوره فى الذاكرة.. يحدثه عن أمجاد الفلاحين وبطولاتهم أيام الاستعمار.. عن مغامراته فى حرق معسكرات الأعداء، وتربصه لجنود الإنجليز فى غيط القصب.. يحدثه جده الصديق عن الخير والشرف والحكمة.. عن الأفراح زمان والليالى الملاح، عن عنترة وأبى زيد الهلالى.. عن ياسين وبهية، وحكايات ألف ليلة وليلة.

بدوره كان يحدث جده الصديق عن همومه فلا صديق له سواه فأمه مشغولة، وأبوه فى الغيط، وأخوته فى المدرسة.. يقول لجده وهويشعر بقسوة الوحدة والإهمال: متى يتفرغون لى يا جدى.. فأنا أنتظر..

يربت جده على كتفه بيد معروقة، وينظر إليه بعينين

يقـرأ فـيـهـمـا عـمق المـاضـى الـحـزيـن، ويهـدئه قـائلاً "وأنا أيضاً..

ليندهش فـزعـاً.. "وأنت مـاذا يا جـدى؟" يقـول والـدمع يترقرق فى مآقيه :

"وأنا أيضاً أنتظر"!!

حكاية الولد والبنت

لم يدْر بخلد الولد أبداً - أن البنت قد تضيق به يوماً - لأنه يختلف عن بقية الناس، وأحبته، هكذا قالت له منذ زمن بعيد ، وأضافت وهما في ناديهما الأثير المطل على النهر، أنه ملأ قلبها حُباً وحياتها همساً وفرحاً وعطراً وأهداها الولد ورداً وفلاً .

في دفاتر الشعراء غاص الولد يبحث عن دُر الكلمات، وفي كتب التاريخ سافر، ولأن الولد شاعر .. كان.. بادي القلق، بادي التوتر، مهموماً، قالت له البنت ذات مرة : أحببتك لأنك شاعر ومميز، تحمل في قلبك الصغير

همـوم العـالم، ولأن الـولد كـان كـثـيـر الـتـجـوال فـى جـذور الأحداث، باحثاً عن الـحقـيقـة، والبنت حلوة وشـهـيـة،طرية وندية، هـامت وجـداً بالـولـد، وسـبـحت فـى عـذب كلـمـاتـه .. وحلقت بجناحيه فى دنياه الوردية، وتمنت لوتبقى فى دنياه لا تغادرها إلا لآخرة تلقى فيها الله ..

مـشـت البـنت مع الـولد، ومـعـهـمـا مـشـت الـحكـايات وانتشـرت، وبكلام النـاس مـا عـبـثـت، وطال الوقت، والبـنت ملت الانتظار، والولد فى هـموم الوطن غـارق، وفى مشـاكل العـالم سابح، وفى عينىّ البنت يجـد المـرفأ، وعلى صـدرها يرسـوويغفـوقليـلاً، ومن شـفـتـيهـا ذاق الشـهـد ؛ قـال الولد وهويفرك يدى البنت :

عقد المؤتمر الدولى للسلام ضرورى.

قالت البنت :

– عقد القران أكثر ضرورة لقطع ألسنة الناس.

= الدولة الفلسطينيـة ضـرورة لإيواء الفلسطينيين بعـد طول تشرد.

– إيجـاد الشـقـة ضـرورة لتـأوينا بعـد عناء الانتظار الطويل.

= الأكثر ضرورة أن يتوحد العرب.. كما توحدوا فى أكتوبر.. ليصبحوا قوة مؤثرة.

– من الضرورى جداً أن تتوحد كل جهودنا للبحث عن حل لمشكلة الجهاز.

= ثمرة الانتفاضة ينبغى ألا تضيع هباء ولابد أن تتوج بالدولة الفلسطينية.

– ثمرة الحب ينبغى ألا تضيع هباء ولا بد أن يتوج بالزواج.

= مشاكل الشرق الأوسط أساسها مشكلة فلسطين، فلابد من تحرك عربى واع ومنظم ومدروس.

– مشكلتنا أساسها ضيق اليد وعُسر الحال ولابد من إعادة النظر..

= نعم.. لابد من إعادة النظر فى علاقتنا الدولية.

– حسناً.. لقد تأكد لى أن علاقتنا أصبحت مستحيلة..

وكأنه كان فى سكرات حلم وبدأ يفيق

= ماذا تعنين؟

– أعنى أن كلاً منا فى واد، اتسعت الهوة بيننا، وتباعدت المسافات.

أشعر بك بجوارى.. وفى قلبى.

– تماماً كما إسرائيل بجانب فلسطين،

وفلسطين فى قلب العرب..

= ألبون شاسع بين التشبيهين.

– بل إنه عين الصواب..

= يقيناً أحبك..

– كما يحب العرب فلسطين.

= أنت أنشودتى فى الصباح والمساء.

– فلسطين فى صدر نشرات الصباح والمساء، أنشودة العرب، وأولى القبلتين.

= هل تَشُكِين فى حبى؟

- شك بلغ ذروة اليقين.

= إلى هذا الحد!!

- نعم..

= وما الذى جعلك تشكين فى حبى لدرجة اليقين؟

- سنوات العمر التى انقضت أحلاها دون أى بادرة أمل منك جاوزت العقد الثالث، وتجاوزت كلام الناس، وتعاليت على نصائح الأهل والخلان، وتركت " عرساناً " يعتبرون فرصاً فى هذا الزمن..

= أى زمن يا فتاتى..

قاطعته قائلة :

- أرجوك كف عن الشعر، لقد صرت أبغضه.. سلب قلبى ولبى، سرق بصرى وأذنى وحواسى.. سرق سنوات عمرى.. هل بنت القوافى بيتاً.. هل أعادت فلسطين..؟ هل..؟ وهل..؟

= هل جننت فتاتى..؟

- حقاً جُننت يوم أن استسلمت لمعسول كلامك، وغفوت فى رأسك ملتذة بجنون أفكارك.

= والحل!!

نظرت إلى يدها اليمنى كما نظر، واغرورقت عيناها كما اغرورقت عيناه.

وقال بصوت مبحوح :

= أليس هناك حل آخر..؟"

استجمعت بعض قوتها، وبهدوء دست فى يده خاتم الخطوبة، وهمت بالانصراف حاول أن يستوقفها، ولكنها أخذت تعدو، وتعدو، وكأنها تريد أن تستدرك ما مضى، حاول أن يعدوخلفها فاستوقفه الجرسون قائلاً : الحساب يا بيه!!

العرافة

.. وفرغت من احتساء قهوتى، وفنجالى ملء أصابعها، توشوشه، تحملق فيه، تتوه معه، أنظر إليها بقلب واجف وعقل خائف. أراها وكأنها فى حالة انعدام وزن.. مجذوبة.. يأتى صوتها واهياً وكأنه قادم من عالم آخر..

– منحنى مغلق..

وتصمت العرافة، فأرتعد، وأذوب فى صمتى وخوفى. إلى أن يأتى صوتها واهياً وحزيناً.

– خارج المنحنى أسود تزأر وبوم ينعق وثعابين لا يكف فحيحها، أشجار يابسة، وظلام يحيق بالمنحنى،

الجومزمجر، رعد وبرق وإعصار، وعليه وقفت شياطين تقهقه..

.. وتسكت العرافة، فيشتعل قلبى بالحريق، وتقلب فى الفنجان، وتشرد فأحس بأنها رمت بثقلها وخف جسدها وشفت روحها وتألقت، ويأتينى صوتها مخنوقاً :

– داخل المنحنى مثلثات ومكعبات ودوائر ومصطلحات غريبة ولغات عديدة وأشكال لا حصر لها _ أشياء أقرب إلى اللوغاريتمات..

قلت بلهفة وخوف :

– ماذا ترين؟.. حدثينى بلغة مفهومة..

قالت :

– منحنى الصدق ومنحنى الثبات ومنحنى الموضوعية..

قلت مقاطعاً :

– أعرفهم من قراءاتى فى علم النفس..

قالت هازئة :

- وجودهم ضئيل، ويكاد أن يكون معدوماً، عليهم وقف مأجورون، استعان بهم أهل القمة..

قلت من فوري :

- ومن هم أهل القمة؟

نظرت إلى الفنجان بين أناملها، حملقت فيه لفترة ليست وجيزة وعادت تقول :

- أرى مستقيمات خرجت من " مسدس " موضوع بعناية على قمة المنحنى، كل مستقيم يتجه إلى شكل من الأشكال الهندسية، يرتكز على نقطة المنتصف..

قلت وقلبى مقبوض :

- زيدينى وضوحاً

قالت :

- من منتصف المسدس خرج مستقيم ليلاقى نقطة تقاطع المستقيمات المتوسطة فى المثلث، وخرج مستقيم آخر من منتصف المسدس ليلاقى نقطة تقاطع القطرين فى المربع، وهلم جراً من المستقيمات اللامتناهية التى

خــرجـت من الـمــســـدس.. وتمكنـت من التــحـكم فى كل الأشكال..

قلت :

– وماذا عن المربع والمثلث والمستطيل والدائرة.. إلخ؟

قالت :

– مـجـمـوعـة من النقط.. تكونت فى أشكال عـدة، لكل شكل خصائصه وأفكاره " وأيدلوجيته ".

قلت : ولمـاذا تحكم المسدس فيها، وهولا يعدوأن يكون شكلاً من الأشكال الهندسية؟

قالت :

– لأن المسدس اعتلى قمة المنحنى.

وصمتت العرافة لبرهة، ونظرت للفنجان، وأردفت قائلة

– وسلط شعاعاته ومستقيماته _ على قلوب كل الأشكال _ لتحصى دقاتها _ وترصد حركاتها وإيماءاتها _ وبالتالى

يسهل عليه _ أن يميت أى محاولة منها للصعود نحوالقمة..

قلت :

– ولماذا لا تتوحد كل الأشكال للوقوف فى وجه المسدس _ والتصدى له؟

نظرت إلىَّ العرافة، ودنت منى، ورفعت الفنجال إلى عينى وقالت :أنظر، ونظرت إلى الفنجال.. وأمعنت النظر فيه.

قالت :– ماذا ترى؟

قلت :

– أشكال هندسية مبتورة.. مشوهة، جريحة، ولكن من أين للمسدس بهذه القوة الجبارة؟

عادت تنظر فى الفنجان، وصمتت.. ثم قالت :

– خارج المنحنى، أسود وثعابين وشياطين، وألمح شعاعاً بسيطاً واصلاً من الخارج إلى منتصف المسدس.

ويبدويا ولدى ـ الله أعلم ـ أن المسدس يستعين بقوة من الخارج لتعينه فى التحكم على الأشكال الأخرى وتضمن له البقاء على القمة.

قلت : وتلك القوة التى فى الخارج ـ ماذا تريد على وجه الدقة؟

نظرت إلىَّ العرافة ـ وكأنها تتهمنى بالجهل، وسكتت، راحت تقلب فى الفنجان.. وزاد صمتها ـ عاجلتها بالحديث ـ قالت :

- أرى شعاعاً بسيطاً ومستقيماً نورانياً

نظرتُ إليها فإذا بجسدها يرتعد ووجهها تتخلله أضواء نورانية ولسان حالها يقول :

- أرى قوة خفية تحركها قوة كبرى غير مرئية..

وبحلقت بعينيها وخيل لى أنها تنظر لقوة جبارة سحبت نور عينيها جذبت عقلها وقلبها، الفنجان ملء أصابعها.. يتراقص، يأتى بحركات بهلوانية تقبض عليه بشدة، يتهشم.. أسنانها تتقارع وجسدها يختلج.

صرخت العرافة بغتة.

شعرتُ بأن السماء تهتز وأن الأرض تميد من تحت قدميّ، أحسستُ بأن كل شيء يصبح دون الصفر، كل الأشكال تتضاءل أمام عينيَّ، كل اللغات تتضوى وتذبل ويبقى شكل واحد ولغة واحدة..

اقتربت من العرافة التى تسمرت فى مكانها وكأنها فقدت النطق، صرختُ فيها _ لماذا تصرخين؟

لم تجبنى.. هززتها.. وقعت على الأرض..

.. تكورت

.. تضاءلت

.. تلاشت

طريق الندامة

تأبطت ذراعه، قبضت على ساعده، أحسَّ بأصابعها الطويلة، الرقيقة الناعمة، تغور فى قلبه، وما زال الطريق ممتداً، لا تبد له نهاية.

موحش الطريق، ووعر هجرته الأقدام من عشرات السنين. داخله مفقود، وخارجه مولود. على مقربة منه وضعوا (لافتة) كتبوا عليها (طريق الندامة).. الكل يخشى الاقتراب منه، والأمهات يحذرن صغارهن.. أصرَّ هو.. كما أصرت هى.. على أن يقطعاه ولوكلفهما العمر، قال : سنمضى بقوة لا تفتر، وعزيمة لا تكل. قالت : سنمضى

وزادنا العلم.. أعدا خرائطَ وصوراً ورسوماً بيانية وبوصلة ونظارات وجهازاً لاسلكياً..

سرى الخبر بين الناس مسرى الدماء فى العروق، ضحك لاعبو(النرد) على المقهى، وهزأ ماسك مبسم (الشيشة).. لم يعبأ بالأفواه التى انطلقت ولا تكف عن التهكم، ولم يرهبهما تهديد (العمدة) ولا أزعجهما (حديث إمام المسجد) قال :

– الناس على دين آبائهم..

قالت :

– أجيال متعاقبة توارثت الخوف، نسجوا حوله الأساطير..

– سيوفر الوقت والجهد والمال..

– سيربط القرية بمعظم القرى..

أول الطريق من جهة القرية شاق، ووعر، صخور رُصت على شكل أهرامات من أزمنة غابرة.. رمقهما أهل القرية وهما يتسلقان الصخور، أعشاب نمت عشوائياً، وأشجار

تيبست، شاهق مدخل الطريق بارتفاع الهرم الأكبر، توقفت المارة، وخرج أهل القرية، استمرا فى الصعود والعرق ينزل من جسديهما، وحواف الصخور أدمت أيديهما وأرجلهما، وأبداً لم يتسرب اليأس إليهما ولا الخوف، وزحف الليل، وطال الليل، وأهل القرية يحملون المشاعل، يرقبونهما، يحسنون الإصغاء إليهما وهما ينقلان لهما الأحداث أولاً بأول عبر جهاز اللاسلكى.. ونظرات الإعجاب أخذت تزحف إلى أعينهم، والخوف عليهما بدأ يتسلل إلى قلوبهم..

– (ألمح شعاعات الفجر آتية من بعيد)..

– (على مدد الشوف، عمائر سامقة، وطرق ممهدة، مسفلتة، وأعمدة إنارة ... و..)..

وبينما العمدة يزمجر، ويتوعد، ويهدد، كان الصوت يأتى جلياً قوياً ليبدد مخاوف الناس، ويزيل الوساوس ويثير الدهشة..

– الناس هنا تمشى على الماء، وتطير فى الهواء على الجانب الآخر من الطريق حياة ناعمة، هادئة، مستقرة.

- لأن لهم الحديد، ودانت لهم الدنيا..

وبينما ارتفع صوت العمدة، ملوحاً بقبضته فى الهواء، سُمع دوى طلق نارى، فانقطع صوت جهاز اللاسلكى، ووجمت الناس، وساد صمت شديد إلا صوت العمدة الذى أخذ يردد متهكماً : (قلنا إنه طريق الندامة!).

الجنى آدميون

(١)

لم يجرؤ أحد من أهل قريتنا على بناء دار له بالقرب من الخـرابة، التى تتوسط القـرية تقـريبـاً وتنطلق منهـا أصــوات فى الليل تبث الرعب فى القلوب، الكل يخـشى الاقتـراب منهـا، والأمـهـات يحـذرن صـغـارهن، قـال شـيخ المسجد يسكنها الجان.

.. على فترات متباعدة تمتلئ ساحة القرية بالناس، يفـدون إليـهـا من كل الحــارات، ويدور الهـمـس واللغط، وتعلوالأصوات، ويعلنون الاحتجاج على سلوك الجان، قال

الخفير : إنه أطلق عدة أعيرة نارية وكلها اخترقت أجسادهم ولم يخر أيٍ منها صريعاً، وأكد كلام الخفير عدد لا بأس به سمعوا دوى الرشاش فانتفضوا من مضاجعهم.

فى الهزيع الأخير من الليل يتسللون إلى حظائر المواشى يسرقونها، ويخطفون الماعز والخراف من الحقول، يقول شيخ المسجد " :الجان يحن لسيادة الأرض فقبل أن نكون كانت الأرض تمتلئ بهم، استوطنوا الأرض عشرات الألوف من السنين، فسدوا فيها، وسفكوا الدماء، حلت عليهم لعنة الله، فاستبدل بهم الملائكة ليعبدوا الله فيها، ويسبحون بحمده، ثم تشكلنا من أديم الأرض، ونفخ الرب فينا من رُوحه، صرنا نحن البشر من الطين والنور، صعدت الملائكة للسماء، وهبطنا نحن الأرض، وعصى إبليس الرب، أبى أن يسجد لآدم واستكبر فطرده الرب، وأمهله إلى يوم البعث، ستمتلئ جهنم به وبمن تبعه ".

(٢)

كانت الشمس قد جنحت صوب الغروب، والناس يفترشون ساحة القرية،معظم عائلات الحارات توافدت،

فالحدث جدٌّ خطير، لم يسبق للقرية أن شهدت غزواً من الجان بهذه الوحشية، فضمت بيتين للخرابة عنوة وقسراً، بعض العائلات تقع بيوتهم بالقرب من الخرابة وهؤلاء أشد الناس خوفاً

فهم واجهة الخطر المباشر،والبعض تقع منازلهم بعيدة قليلاً، والبعض يميل فى سُكناه إلى الأطراف، والبعض البعيد يرى أن الخطر قادم إليه على المدى البعيد، ثمة شعور مشترك ممزوج بالرعب يلف الناس جمعياً، الشيخ يعلن فى الناس : وجودهم فى هذه المنطقة يشكل خطراً، انتهاكهم لحرمة المسجد لا يجب السكوت عليه، فهم يحلمون باستيطان هذه القرية، يرون أنهم أحق بها، فضل الله آدم على إبليس ،تحدى الله فى ضعف آدم، هبط معه إلى الأرض، لا تخزونا يوم البعث.. وقبل أن ينهى الشيخ حديثه، أذاع الخفير فى الناس أن العمدة قرر الذهاب إلى الخرابة ليلتقى بالأستاذ عفريت، دهش الناس فى البدء، وظنوا أن الخفير والعمدة يمزحان، وقبل أن تزول آثار الدهشة، ذهب العمدة والخفير فى موكب كبير، وتفرقت الناس، منهم من وقف خلفه يؤيده وقال :

جرئ، ومن عاداه وقال : خائن لا يعنيه غير مصلحته، وخرج على العُرف والدين، ومن وصفه بالجنون، وفوجئ الناس ببيان من العمدة أذاعه الخفير : " أن السيد العمدة قرر الزواج من الفاتنة الجنية الآنسة " سارتاليزا ".

(٣)

أصبح أهل حارتنا لا يخافون من الخرابة بعد صلة النسب الجديدة، ولكنا نجد شيئاً قوياً فى داخلنا يجعلنا نبغض الخرابة ونبغض قاطنيها، فهم الذين ينشرون الفساد ومن معدن غير معدننا، والشيخ أول من أفتى بأن زواج العمدة من " سارتاليزا " باطل وكان أول من دفع الثمن لتمرده على العمدة وحرمه المصون الجنية هانم.

"سارتاليزا " بجسدها العملاق تمشى بجوار العمدة، يجوبان فى الحارة وقتما يحلولهما، ويذهبان للخرابة وقتما يريدان، وأكد بعض العارفين من أهل حارتنا همساً : " أن العمدة كان مخموراً بجمال " سارتاليزا " وأنهم هناك رووه الخمر الجهنمية فذهب عنه العقل، وأن زواج العمدة من الإنس بسارتاليزا من الجن سيقرب الهوة بين النقيضين

وسيكون بداية للتزاوج من بعض، ومن نسلهما يخرج جنس جديد يسود العالم من الطين والنار، من الجن والإنس يسمى (بالجنى آدميين).

العمدة وسارتاليزا أيامهما كلها شهر العسل، سارتاليزا قالت، تحرر من عادات البشر وحماقتهم، يجب أن ترقى إلى مستوى الجان، سارتاليزا قالت وقالت : إنى حامل !

(٤)

على بساط الريح يحلقان، وعلى أنغام الموسيقى يتمايلان، يشدوان بأغنية رقيقة حالمة، بطل من الإنس وبطلة من الجن حققا المستحيل، قهرا التراب والنار، والتقيا، وتسلقا الجبال وعبرا البحار، وتخطيا الزمان والمكان، تُدق الطبول، وتُعزف الألحان، ويعلن الخفير فى الناس : أن العالم الجديد على بشائر التكوين، سارتاليزا فى الشهر الأخير، ودبَّ الرعب فى قلوب أهل حارتنا، على المدى البعيد سيتلاشى الجنس البشرى، ولم يتصوروا أبداً أن يجئ جنس آخر ليحل محلهم.

وضعت سارتاليزا المولود الجديد، مزيجاً من الطين والنار، وأعلن الخفير أن العمدة سيقيم حفلاً كبيراً فى ساحة القرية يحضره الجان والإنس بمناسبة قدوم المولود الجديد مؤسس الجنس الجديد (الجنى آدميون).

وغلت الدماء فى عروق أهل حارتنا، وفى اليوم الموعود،وقف يحمل المولود الجديد، والفرحة تشع من عينيه، وأهل حارتنا غير مصدقين، فانتفض نفر منهم - وأسكنوا - صدر العمدة عدة طلقات.

كسوف

- هاتفنى!

عشر سنوات انقضت ولم نلتق إلا بضع مرات بالمصادفة، نتعانق لدقائق فى الشارع (الزى الصحة.. الزى الحال!)

.. يهاتفنى من العريش..

كان يكبرنى بسنوات قليلة.

يهنئنى بنشر قصة لى فى جريدة سيارة..

أداعبه : هل ما زالت أشعارك حبيسة الأدراج؟

يأتينى صوته ضاحكاً :

"نويت أن افك قيدها، وأطلق سراحها.."

ما زلت أحتفظ بوهج بداياته.. كان متيماً بأمل دنقل..

ضحكاته تجلجل عبر الهاتف، يضرب لى موعداً : " نلتقى غداً ظهر الأربعاء "

- لماذا تختار وقت كسوف الشمس يا مجنون؟!

- أختار اللحظة النادرة ياصاحبى.. لا تصدق علماء الفلك، فالشمس والقمر يتعانقان يلتقيان، لقاء الحار بالبارد، السالب بالموجب.

ويضحك.. فأشعر بأسلاك الهاتف تهتز.. يقول :

- يُنبئنى قلبى أن الشمس ستلتقطنى فى هذا اليوم، تصهرنى، تذوبنى، وقد أصير شعاع ضوء أبدد مساحة العتمة..

.. أضع السماعة وأنا أضحك، وأجدنى شارداً فى ذلك الصديق القديم.

يقـرأ علىَّ أشـعـاره ونحن نتسكع فى طرقـات مـدينتنا الصـغـيـرة، يحـدثنى عن بنت الجيـران _ ربة الشِعــر التى تلهمه القصيدة.

يتصيد أفكاره من شـوارع " القصلة" الضيقة، والملتوية كأفعى، وبيوتها الواطئة، وتكدس الأولاد فى غرف ضيقة لا تدخلها الشمس، وافتراش النساء لعتبات الدور، والذباب، وأكياس القمامة وتلال السباخ والناموس.. أدخلنى إلى عالم حسن فتحى وعمارة الفقراء، يشرح لى نظرياته وأفكاره ورؤاه..

.. اتفقنا على حب _جمال عبد الناصر، وعلقنا صوره على الجدران، أهدانى قصائد أحمد فؤاد نجم وأشرطة الشيخ إمام.

.. متكئاً على ذراع الذكريات، وصديقى القديم.. متأبطاً ذراعى، نجوب شوارع مدينتنا الصغيرة.. أسفلت الشارع يجلد أقدامنا.. يحدثنى عن أمه الطيبة، ووالده الرجل الطيب الذى يتباهى بابنه الذى ألحقه بكلية الهندسة.. ومشقته فى تدبير مصروفات الكلية وثمن المذكرات

والكتب.. يحدثنى عن النيل والسد العالى.. وأنظمة الرى.. يحلم بوصول النيل إلى جنوب الوادى، يحدثنى عن دراسات علمية وأبحاث جامعية - تجعل من مصر - لونفذت - سلة غلال للعالم!

.. أبتسم - وأحدث نفسى _ هاهى أحلامك تتحقق يا صاحبى، النيل يصل إلى سيناء، وتترك هندسة الرى بالزقازيق وتركب النيل إلى سيناء.

ساعات ونلتقى أيها الصديق وتحدثنى عن حلمك الذى تحققه على أرض سيناء، ونستعيد معاً الذكريات.

- الولد أحمد العشرى الذى هجر الشِعر والدراسة والبنات، وأطلق اللحية، ولبس الجلباب القصير، وأنكرنا فى الطريق العام، ورفض مصافحتنا، وأسمانا أصدقاء الجاهلية!!

- والولد أحمد الجمال عاد من الخليج يلبس البنطلون الجينز والقميص الحرير المشجر يفوح منه عطر نفاذ، وسوار فى معصمه، وسلسلة مفاتيح ذهبية، وساعة رادو،

يمسك "موبايل" ويركب سيارة حديثة لا أعرف ماركتها..
يكتب أشعاراً " بترودولارية"!!

– وربة الشعر التى كانت تلهمك القصيدة _ داست على قلبك وشعرك وفقرك وباعتك بحذاء أنيق ورداء أنيق، وألقت بنفسها فى أحضان أول من صادفته يملك المال والثوب والذهب!!

و.. و.. وأنت أيها الصديق _ رحت تحلم " بقصلة " جديدة فى سيناء، شوارع واسعة نظيفة مسفلتة، وبيوت جديدة تدخلها الشمس والهواء النقى..عانقت أحلام أهل " القصلة " البسطاء وامتطيت النيل وسافرت به إلى سيناء.. تطبق نظم الرى الحديثة.. أكاد أرى بريق فرح فى عينيك الخضراوين . أنظر فى ساعتى حاثاً عقاربها على سرعة الدوران أنادى الشمس أن تخرج لأخرج لمقابلة الصديق.. رغم تنبيهات أجهزة الإعلام المقروءة والمرئية والمسموعة بضرورة البقاء فى البيوت والتحذيرات من التطلع إلى الشمس حتى لا تسرق شعاع البصر!!

.. أفتش فى دفاترى القديمة عن بعض قصائده.. أنفض التراب عن أيامنا الخوالى..

مسئولوالأمن فى الجامعة يمنعون قصائده..، كل المنابر - لفظت أشعاره.. ورفضت إعطاء قصائده هوية.. لملم فى أشعاره أحزان الوطن.. ونسج من أحلام الغلابة حُلماً.. قال.:

- الشاعر.. كلمة - ألقاها الله فى بطن العذراء - فكان المسيح قصيدة شعر.. الشاعر- نبى - بالكلمة يفتح قلوباً غُلفا.. ويُسمع أذاناً صُما.. بالكلمة نُطبب النفوس.. ونُلملم الجِراح..

قصائده المتبقية فى دفاترى وذاكرتى _ تسرق الليل منى.. وفاجأتنى الشمس عليلة ذابلة.. تنثر ضوءاً خافتاً - وكما توقعت - الشارع خال من المارة _ حتى العصافير التى كانت أصواتها فى الصباح تطربنى سكنت فى أعشاشها.. ورحت أتصوره بعينيه الخضراوين، المتألقتين، وشعره البنى الجعد المفروق من الجنب.. ماذا سيلقى علىّ من أشعار؟! ومساحة الحرية تتسع يوماً بعد يوم.. أفقت

من شـرودى على رنين الهاتف، رفـعت السـمـاعـة.. لأسـمـع صوتاً حزيناً

- "البقاء لله "!

فزعاً صرخت : من؟!

- حادث سيارة بشع راح فيه الباش مهندس!

رميت السماعة، وخرجت مندفعاً - ناظراً للشمس..

وكل يوم أنتظره شعاع ضوء يبدد مساحة العتمة.

(هذه القصة مهداه إلى روح الصديق الشاعر أحمد محفوظ أسكنه الله الجنة)

(*) القصلة حى عشوائى من أحياء مدينة ديرب نجم.

دراما شعبية

تولدت الفكرة، لا ندرى كيف ؟! ولا نعلم من تفتقت قريحته عنها . المهم أنها راقت لنا . "ستكون قنبلة الموسم"..

منذ سنوات و نحن نراه. فى الموقف يمسك بدلو ماء وفوطة قديمة يمسح السيارات وينادى أحياناً على الركاب، على المقهى يحمل الشيشة إلى الزبائن، فى الأسواق ينادى على البضائع، فى المسجد أيام الجُمع - يغسل دورات المياه

عند باعة الصحف - يحمل الجرائد والمجلات، لا يتقيد بعمل ولا يرتبط بمكان.

.. لا يغادر " الجاكيت " القديم الذى فقد لونه جسمه ولا القميص المهترئ، والبنطلون " الجينز " زاد فيه الخرق على الراتق، يختفى أحياناً _ أياماً و شهوراً - ثم يعود للظهور- بشعره الأكرت الهائش ونظارة سوداء رخيصة تلتهم وجهه النحيف و المسحوب، تحجب نظراته النهمة لصدور وأفخاذ البنات والنساء.

فى مدينتنا الصغيرة _ المكتظة بالمقاهى - تنتشر النميمة والأيام - أيام انتخابات - تملأ الصور الجدران

واليافطات فى كل مكان، نفتش فى وجوه المرشحين - عن وجه له أنف مثل أنوفنا. وعينان مثل عيوننا، فأنف هذا المرشح مزكوم، وأنف المرشح الآخر معقوص - تتطلع فتحتاه إلى السماء - والمرشح الثالث يكتم طاقتىّ أنفه بقطعتىّ قطن.

ندقق النظر أكثر - فهذا المرشح عيناه فى قفاه، وهذا أحول يمين وذاك أحول يسار، وما بين اليمين واليسار فضاءات واسعة لا يراها رفقاء أعور اليسار ولا أصحاب أعور اليمين ولا مريدو الذى عيناه فى قفاه.

قنبلة – لا ندرى من ألقاها – فدوَّت.. " محسوب يدخل الانتخابات "!

هزلاً فى البدء – تلقينا الفكرة، ولكن سرعان ما أُخذت بجدية، ودخل محسوب دائرة الضوء، ودخلت الفكرة حيز التنفيذ.

– لابد لمحسوب من شعار – وبرنامج – وتاريخ.

مع أنفاس الدخان وطرقعة زهر الطاولة، ورشفات الشاى تتولد الأفكار.

تلاشت المسافات بين الفكهانى والفسخانى والجزمجى و خريج الجامعة المتعطل و الموظف، يتسلم سائق التاكسى مبسم الشيشة من سائق الكارو ويتناول النقاش الفكرة من النجار، تتراص الأفكار مع الكراسى فى المقهى على شكل دائرى، تتسع الدائرتان، دائرة الأفكار ودائرة الكراسى، وفى نقطة المنتصف – جلس محسوب – يوزع ابتساماته، فالأفكار تتساقط على رأسه كقطرات الندى، وكلما صادفت فكرة هوى فى نفسه، نهض واقفاً – رافعاً يديه بمحاذاة رأسه، ومنحنياً أمام صاحبها.

فى الصباح - كان سائقو السيارات - أول من علقوا صور محسوب على زجاج السيارات وتلاهم بائعو الخضار والفاكهة،

كل غرس عصاة فى قفص الخضار أو فى قفص الفاكهة وعلق عليها صورة لمحسوب أو يافطة صغيرة يعلن فيها عن مبايعته لمحسوب، وعلى النواصى وفى المقاهى وأمام أبواب المساجد وعند باب الكنيسة تطوَّع تلاميذ المدارس بتوزيع المنشورات و الصور، وفى دواوين الحكومة، وجد الموظفون لأول مرة، موضوعاً ثرياً - يتفقون ويختلفون حوله، يمضون به وقتهم، فما بين توقيعات الحضور وتوقيعات الانصراف - تتشابه الأيام عندهم وما عادت الكرة المصرية تغريهم بالحديث

وواضعوا الكلمات المتقاطعة بالصحف أفلسوا وما عادوا يقدمون جديداً، وأخبار الحوادث ما عادت تثير أحداً، وأخبار الانتفاضة والدولة الفلسطينية والعراق و.. و.. يجدون أنفسهم يدورون فى دائرة التكرار والملل، ومطالب الأولاد وغلاء المعيشة وأسعار الدروس

الخصوصية.. ووجوه المرشحين هى نفس الوجوه - التى تتكرر كل دورة، الجديد والمدهش هذه المرة - وجه محسوب - الذى دخل دائرة الضوء، ومحسوب لا نعرف عنه أكثر مما سمعنا، فهو قليل الكلام، فلا نعرف من أين أتى، ولا إلى أية عائلة ينتمى، كثرت الأقاويل حوله وتعددت الروايات، كل واحد صنع منه حكاية وراح يتفكه بها ويتلذذ فى قصها ويتفانى فى حبكتها والإبداع فيها وإلقائها ببراعة حتى يشد الأبصار، فيشبع فضول الظامئين إلى التلذذ بتقصى حقائق الناس، ومعرفة أسرارهم، اختلف الناس، وتفرقوا إلى شيع و أحزاب، وراحوا يتفقون ويختلفون.. فريق قال :

- أنه هرب من امرأته، وترك لها طفلين، امرأة عملاقة وجبارة، ذات قوام فارع، وجمال خلاب وساحر، أنوثتها طاغية وشخصيتها عربيدة، لم يقدر عليها ففر منها.. "

وفريق آخر قال :

- "أنه عبقرى، يمتلك قدرات خارقة، وذكاؤه فوق مستوى البشر العادى، فلو أنه وجد التربة الصالحة والمناخ

الملائم لأنقذ البشرية وأفاد العلوم، فمعظم العباقرة مجانين لا يستطيعون الحياة فى الحياة العادية لإحساسهم أنهم من طينة غير طينة البشر. فلذا يتمردون ويثورون، إنهم دوماً فى حاجة إلى عالم آخر غير هذا العالم. عالم فاضل ومثالى "

وفريق ثالث قال :

– "أنه أحب فتاة من أيام الدراسة حُباً جارفاً، استأثر على كل ما عنده من عاطفة وهوى، حُباً كحب قيس لليلى، ولما زُفت ليلاه لغيره، ترك العالم و ترك العقل.. "

ثمة ميل واضح من الأغلبية – فى مواصلة اللعبة – حتى النهاية، وثمة قناعة بمحسوب الذى يقع فى تلك المنطقة الفاصلة بين الذين يتمتعون بالحد الأدنى من الصحة النفسية والعقلية والجسدية وبين المعاقين ذهنياً وجسدياً إعاقات بينة، فالمسافة بين محسوب وهؤلاء هى نفس المسافة بين محسوب وأولئك، وما كنا نظن أبداً أن مدينتنا الصغيرة بقراها الخمس والأربعين " تشغى " بهذا الكم الهائل من المعاقين، فما أن دخلت اللعبة فى مرحلة

الجد – حتى فوجئنا بمسيرة قوامها عشرات بل مئات من المعاقين يجوبون شوارع المدينة ويحملون محسوباً على أعناقهم ويرفعون يافطات التأييد له..

تداخلت خيوط اللعبة وتشابكت و تعقدت واختلطت الأشياء فى أذهاننا، ولم تعد المسألة فكرة مجنونة – مقصودة من البعض وعفوية من البعض الآخر، ولم تعد الحكاية عند البعض الثالث مجرد تمضية للوقت وقتل للفراغ، فغُلقت الأبواب فى وجوه المرشحين، أعور اليمين وأعور اليسار والذى عيناه فى قفاه، و قُطعت يافطاتهم المعلقة على جدران المنازل وأعمدة الإنارة، ورُجموا بالحجارة أينما حلوا، فبرنامج محسوب اتسع للمعاقين وللمهمشين الذين يعيشون على أطراف الحياة ولأول مرة نستمع إلى محسوب وهو يخطب فى هؤلاء البؤساء والمعاقين والمهمشين. وكنا نعتقد فيما مضى أن محسوب – غير قادر على صياغة جملة – وأن الكلمات حتماً ستفر منه وسِر دهشتنا أنه استطاع أن يقبض على معان جد طيبة وعميقة قال :

- "برنامجى الوحيد الذى اتسع لهمومكم وأحزانكم، لأفـراحكم وأحـلامكم، هناك من يعـتـقـد أننا أحط فـئـة الآدميـين، بل لسنا آدميين على الإطلاق، ينظرون لنا على أننا أشـيـاء، بل للأشـيـاء قـيـمـة عندهم عنا، نحن لا نرقى بحال عند هؤلاء إلى مستوى القطط و الكلاب.. "

وكلما صادف كلامه هوى فى نفوسهم، تنطلق

هُتافاتهم : عاش محسوب نصير المعاقين و البؤساء .

تنتفخ أوداجه، تشع عيناه بالسعادة..

"نعم.. نعم.. هذه حـقـيـقـة، القطط والكلاب أوفـر حظاً منـا، فهناك من يوفـر للقطط والكلاب حيـاة ناعـمـة، هـادئة، مسـتـقـرة، أعـرف كـلاباً وقططـاً يعنى أصـحـابهـا بهـا عنـاية لا تقـل عن عنـايتـهم بـأنجـالهم، عـرضنـا على بعض هؤلاء أن نكون خــدامــاً للقطط و الكلاب نظيـر مــأكلنا وملبسنا، رفـضـوا، خـافـوا على القطط والكلاب منـا، للكلب حـجـرة خـاصـة مزودة بـرياش فـاخـر، ينـام الكلب على سـرير وثيـر، فى حـجـرته مـذيـاع وتلفـاز ومـدفـأة يدفع بهـا برد

الشتاء.. له خادم مخصوص وأكل مخصوص وسلسلة ذهبية وأمشاط وكريمات للشعر وشامبو وعطور.. !!

تمس كلماته شغاف قلوبهم، فيعاودون الهتاف..

– عاش محسوب نصير المعاقين والبؤساء.

صمت قليلاً وأغمض عينيه وكأنه يغوص فى أعماقه وعاد يقول :

– "وعالم القطط والكلاب كعالم البشر، هناك أيضاً الكلاب البائسة والقطط التعسة مثلنا.. يعيشون معنا فى الخرابات وفى الشوارع نتكوم معاً تحت جدار، نلتقى فى صندوق زبالة، نعيش معاً متحابون، الكلب لا يعض واحد منا، و لا يتربص به، فإذا لاقى واحد منا بش فى وجهه و هزَّ ذيله فرحاً، ونحن نسعد بهذه النوعية من الكلاب، ونطرب بالقطط التعسة التى تنام فى أحضاننا.. فى وداعة.. "

وكل يوم يمضى يكتسب محسوب مساحة ود فى القلوب، وتتسع دائرة المؤيدين له، وتلقفت أخباره بعض

الصحف وطيرت وكالات الأنباء حكاياته وأُخذ آراء علماء النفس والاجتماع و التربية، وبين يوم و ليلة أصبح محسوب نجماً.. واختطف الأضواء من أعور اليمين ومن أعور اليسار ومن الذى عينيه فى قفاه. وأى مرشح من هؤلاء يكون فى المكان الذى نزل فيه محسوب يجد نفسه فى مأزق. لانصراف الجماهير عنه والتفافهم حول محسوب.. وأصبح محسوب شبحاً يطاردهم فى كل حارة وفى كل شارع وفى كل قرية.. كابوساً يجثم فوق صدورهم..

.. فكرة إسناد الانتخابات من الألف إلى الياء للقضاء هذه المرة تجعل من بعض المرشحين من يبول على نفسه بعد أن كان يبول على الجماهير فى الوضع واقفاً أو جالساً والأضواء مركزة على هذه الدائرة، مصورون وصحفيون ومعلقوا إذاعات وتليفزيونات، دخلت الدائرة التاريخ، مسئولو الأمن ورجال الشرطة، العسس والبصاصون، مروجو الإشاعات ومحترفو الكلام، اللعبة هذه المرة صعبة ومعقدة، والدائرة همومها كثيرة و مشاكلها وفيرة.

قال بعض أهل الدائرة : " لما أغمضنا عيوننا اليُمنى وسرنا وراء أعور اليسار انكشفت خدودنا اليمنى وتلقينا عليها صفعات موجعة، وكلما تذكرنا أعور اليسار أو رأيناه امتدت أيادينا لا إرادياً تتحسس خدودنا اليمنى، وسرنا وراء أعور اليمين فانكشفت خدودنا اليُسرى وكانت الصفعات عليها أشد.. وسرنا وراء الذى عينيه فى قفاه فتلقينا الصفعات على الخدين.. "

فى الخفاء وفى العلن - بدأ كل مرشح يتسلل إلى مؤيدى محسوب ويتقرب إليه، فأعلن أعور اليسار : أنه الأقرب إلى الرفيق محسوب، لأنه نادى قبله ومنذ زمن بعيد بالعدل فى توزيع الثروة، و حق الحياة للجميع، وأنه أول من انحاز للبسطاء والعامة وكان لهم غيط قمح وأعمدة إنارة ومصنع ومدرسة و مستشفى، ومسكناً.. و.. و.. وقال أن برنامجه يتسع للرفيق محسوب ورفاقه، " وأعلن الذى عيناه فى قفاه " :

أن قلبه يتسع للأخ محسوب وللأخوة أصحابه وأنه يبشرهم بالجنة التى وعد الله بها الأبرار.. و.. و..

وكان أعور اليمين أكثر منهما مكراً ودهاء.. فكل يوم يذبح عجلاً - يوزع لحمه مشوياً على الفقراء و المعاقين والمهمشين وللشواء رائحة لا تقاوم.. ويوزع قمصاناً وبنطلونات وجلابيب، وينقدهم أموالاً فى مظاريف، وظل لأيام ولأسابيع لا ينطفئ له موقد، ولا تقر له عين حتى يطمأن أن آخرهم أكل وشبع مثل أولهم.. ويوماً بعد يوم بدأوا (يتسرسبون) من أمام محسوب، واحداً تلو آخر، وجماعة إثر جماعة، وأصموا آذانهم عن شعارات أعور اليسار وأغمضوا أعينهم عن الجنة التى وعدهم إياها - الذى عيناه فى قفاه - وبقى محسوب مع نفر قليل يقاومون.

المهر

(١)

حين جاء الليل، لم يستطع أن ينام فالليل نهار فى شقة الجيران، موسيقى صاخبة ، ورقص وضحكات مرتفعة، من شيش البلكون تتسرب إليه، حتى رائحة العطور تقتحم الغطاء الذى أحكمه حول جسده فيزفرها ضيقاً وغضباً.. لامّ نفسه لأنه

نزل فى شقة مفروشة.

أزاح الغطاء بعنف ونهض واقفاً مطلقاً تنهيدة شديدة، أضاء النور، وفتح باب البلكونة، لا يفصل بلكون الشقة التى

نزل فيها عن بلكون شقة الجيران سوى سور صغير، كان صوت الموسيقى فى البلكون أكثر صخباً، والضحكات أعلى، ورائحة العطور أنفذ..

من عينيه طار النوم. كانت الأضواء هناك خافتة، أتاحت له النافذة مساحة لا بأس بها من شقة الجيران، تكشف بوضوح عن الأشخاص الذين يحتلونها.. قام بإطفاء النور، بعد أن استحال النوم.. وقع نظره على امرأة تبدو فوق الأربعين من عمرها.. ممتلئة قليلاً ولكنها ليست مترهلة، أنيقة بلا تكلف، جميلة بلا فضول.. لم يكن بحاجة إلى فراسة، ليعرف أنها صاحبة الشقة، من غدوها ورواحها، وتوزيعها الابتسامات على الضيوف.. لم يمض أسبوع عليه فى الشقة حتى تعرف على أغلب سكان العمارة، من خلال البواب الذى يثرثر دوماً معه.. تذكر ما قاله البواب بأن شقة الجيران يمتد فيها السهر حتى السحر، ولا تنقطع الحفلات.

.. المرأة الأنيقة تدير جهاز تسجيل، تنبث منه موسيقى صاخبة، ينهض البعض على أنغامها راقصاً.. غمزت بعينها

إلى شاب يبدو فى الثلاثين، واتجهت إلى البلكونة، ماكادت تمسح بعينيها المكان، حتى وجدت الشاب الأنيق إلى جوارها، يلف خصرها بيده، وصدح فى أذنها بكلمات لم يتبينها.. دفعت صدره برفق، وانفلتت من بين ذراعيه قائلة بدلال " هيا بنا ندلف حتى لا يثيرهم غيابنا "

(٢)

فى الجو مرقت طائرة.. تابعها بعينيه.. اغرورقت عيناه.. اتكأ بمرفقيه على سور البلكونة.. وجد نفسه فى بزته العسكرية، وقائد الكتيبة يثنى على مهارته.. كان نموذجاً للعسكرى المنضبط.. تطوَّع فى الجيش - رغم أن أباه تطوع للقتال فى ١٩٥٦ وجُرح وحين أراد الانتقام فى ١٩٦٧، كانت رصاصات العدو أسرع _ احتضنه جده من دون أحفاده.. المخلاة على ظهره.. والبندقية على كتفه، والخوذة فوق رأسه.

والمرأة الأنيقة تغلق جهاز التسجيل .. فيلف الصمت المكان للحظات، تعلن خلالها عن مفاجأة من مفاجآت حفل الليلة " سيداتى.. سادتى.. "

.. حشر أشرف رأسه بين ذراعيه، متكئاً بمرفقيه على سور البلكونة ودموع جده تتساقط من عينيه، ويغمض عينيه بتلذذ، يحبس الدموع فيهما وكأنها لآلئ أو جواهر.. يترحم عليه ويقرأ فى صمت الفاتحة له.

يتسلل إلى أذنيه صوت المرأة الأنيقة وهى تخطب فى ضيوفها " يسعدنى أن أقدم لكم مفاجأة الليلة المطرب.. (...)

والراقصة (...) .. تصفيق، وصفير وتعليقات من المدعوين

قائد الكتيبة يعلن عن مسابقة فى السباحة : يقول لميخائيل : " لن أدعك تتقدم علينا هذه المرة.

يخرج ميخائيل لسانه ضاحكا :

- "مازال نفسك قصيراً وتحتاج.. "

- "تقدمت علينا بضربة حظ، كان بينى وبينك شبر واحد.. "

" -الحظ لا يأتى غير مرة واحدة، وأنا فزت عليك خمس مرات.. "

نفخ أشرف وقال بغيظ :

- "وأنا تقدمت عليك فى الرماية، و..... "

يضبط القائد قابعاً فى صدره " دعوا الشمس تحرق وجوهكم، لا تأبهوا بالبثور التى طفحت على جلودكم، تسلقوا الجبال، ازحفوا، لا تتأوهوا إذا لسعتكم النار.

.. المرأة الأنيقة من حلبة الرقص خرجت.. على كرسى وثير جلست، إلى جوارها امرأة ناحلة الصدر، فارعة القد، مالت عليها هامسة :

- آى العطور تستخدمين؟!

- "من وابل الرصاص فى سيناء تخندقوا فى حفرة تحت الأرض، اختلطت رائحة الدم برائحة العرق، يشتمه عطراً، كؤوس الخمر تمر على الضيوف حسب الأهمية، وقطرات ماء فى قعر الزمزمية تنتقل من فم إلى فم ."

- فستانك شيك!

- من باريس!

– ثيابه مهلهلة كمعظم الأطفال فى القرية، زاد الخرق على الراتق " لم يعد يستر العورة يا أمى ".. " فرجه قريب يا ولدى "

– مزاد العربات فى لندن هذا العام غير معقول!!

.. نهق حمار فى الزريبة :

– "ناء كاهله من كثرة الأحمال يا أمى "

فتى ينظر لفتاة بشبق، ينظر لعسكرى إسرائيلى بشذر، يلف خصر الفتاة بيديه، بيديه الممتلئتين يلف عنق العسكرى، يضغط الفتى يد الفتاة، يضغط على عنق العسكرى، يلثم عينيها، ينبش عينيه بأظفاره

– رائحة الشواء تملأ أنفى يا هانم!!

– "الجوع يقرص أحشائى يا أمى "

– تجلد يا ولدى.

(٣)

لم يزل متكئاً على ذراع الذكريات، يذهب إلى تلك الليالى الطويلة،يتسلل من الخيمة وفى جيبه راديو

ترانزستور صغير، يبحث فى محطاته عن أم كلثوم ويبحث فى القمر عن وجه هند.

يحتضن رسائلها، يقبلها كلمة، كلمة، يقرأها للمرة الألف، يشتم رائحة الورود التى نثرتها على الرسالة، ورائحة العطر الذى ندتها به.

هند سامقة كنخلة، ملفوفة القوام، وقع فى هواها، تمشى بدلال كغزال، وعيناها السوداوان أصابت سهامها قلبه، وشعرها جعد أثيث فاحم، ترسله خلفها فيغطى كل ظهرها، ووجهها بلون طمى النيل، مهرة عربية أصيلة، كل خيالة القرية والقرى المجاورة خطبوا ودها، تأبت وتمنعت، وجدت فى أشرف فارسها، وفتى أحلامها..

– مهرك، مهرك يا عروسه...!!

– مهرى غالٍ، غالٍ، غالٍ..

– لو طلبت النوق الحمر سأكون عنترة.

– مهرى أغلى.. وأكبر.

– حيَّرتِنى، قولى يا عروسه..

– سينا، سينا مهرى.

(٤)

إيقاع الموسيقى فى الشقة المجاورة يزداد، آلات موسيقية، وشباب مهووس يعزف بهستيريا، وصوت لمطرب مخمور ونصف مشهور يبتذل كلمات رخيصة، وراقصة تكاد تكون عارية تأتى بحركات ماجنة وألفاظ سوقية..

سنوات ست لم يستطع أن يُقبل هنداً أوحتى تتشابك أيديهما، وتتعانق..

شاقة هى التدريبات، وطويلة الأيام.. متى.. متى تنتهى هذه الأيام؟

تنتهى هناك على الشاطئ الآخر من القناة.

عالٍ هو الساتر الترابى، ينظر إلى القناة وإلى الساتر الترابى، آهٍ لو نعبر ونجتاز هذا الساتر، نتوغل، نتوغل..

تتحرر الراقصة أكثر، ويزداد المطرب النصف المشهور

ابتذالاً، يتذكر أم كلثوم التى زارتهم على الجبهة، وغنت لهم، وعبد الحليم.. كم قضى معهم الساعات الطويلة وهم يتدربون، يغنى لهم ويشد من أزرهم.

(٥)

تقول هند : " سيعبر الفارس القناة، ويدك بقدمه جبال الرمل، يمتشق سيفه، ويمتطى جواده الأشهب، سيفر من أمامه جرذان يهود، سيأتى.. ويأخذنى، ويقدم لى سينا مهراً، نبنى هناك عش حبنا، ونزرع نخلاً وزيتوناً، وأنجب له ولداً وبنتاً، و... "

سعيداً كان يقرأ لميخائيل أحلام هند، فأحسَّ بقلب ميخائيل يدمع قبل عينيه، طوى الرسالة وقال :" ماذا بك يا ميخائيل؟" ميخائيل الأقرب إلى قلبه رغم ما بينهما من تنافس فى

التدريبات..

التزم ميخائيل الصمت، ولأول مرة يرى دموع ميخائيل، خشى أن يكون قد أصاب أهله مكروه، همَّ أن يسأله، ولكنه ابتلع السؤال، فميخائيل الوحيد الذى لم يأخذ أجازات، ولايسعى إليها، منذ متى لم ينزل ميخائيل أجازة؟.. عام.. عامين.. لا يذكر، صعب أن يبوح ميخائيل بسر، شاب

صعيدى، عنيد كثور، احترم صمته ودموعه، بيدين حانيتين هدهد عليه، وانصرف..

(٦)

يتسلل إلى أذنيه صوت المرأة الأنيقة وهى تعلن عن مسابقة الرقص، ينهض المدعوون فرادى وثنائيات،.. وقفوا صفوفاً، وطوابير، تراصوا بانتظام ودقة..

يعلن القائد عن اللحظة الحاسمة، هللوا، فرحين كبروا، الله أكبر، الله أكبر..

قفز أشرف فى القارب : مهرك يا هند!!

صاح ميخائيل : رجولتى يا جيلان!!

(٧)

فى الليل تخندق ميخائيل وأشرف فى حفرة واحدة، وفى عيونهما أفراح ودموع، يقبل ميخائيل رمال سيناء الغالية، ويسجد أشرف شكراً لله، ويقول ميخائيل بدموع وابتسامات " سنوات ست، عجاف يا أشرف "

تنهد أشرف تنهيدة طويلة، بطول البُعد والعذاب والحرمان

وقال :

- كل يوم يمر يا ميخائيل كأنه دهر، فأبى جُرح فى ١٩٥٦، وقُتل فى ١٩٦٧، وهند تنتظر أوبة الفارس..

قاطعه ميخائيل :

- هند، هند بنت مصرية معجونة بماء الوطن والحياة وسكت قليلاً، ثم قال :

- لا تؤاخذنى يا أشرف إذا قلت أنك حتى الآن لم تفهم هنداً

واستطرد ميخائيل :

- هند فى أعماقها تحب الحياة، و تعشق الوطن، كيف تستقر الحياة و الوطن سليب، سلنى، سلنى أنا يا أشرف، فالمرارة فى حلقى، ست سنوات وَ لا تطيب لى الحياة و لا تلذ ولا معنى لها بالمرة، وبدأ ميخائيل يبوح بسره.. تحول أشرف كله إلى آذان مصغية :

قبل يوم ٧ يونيو الأغبر بأسبوعين، أخذت أجازه لأتزوج جيلان، وجيلان حب الطفولة والصبا، وعشقى الأزلى،

أنسى بين ذراعيها الأحزان، تتوجنى ملكاً على قلبها و على كل الدنيا، فتاة فريدة لا تتكرر مرتين..

أسبوعً، أسبوعً واحد يا أشرف، دخلت فيه جنتها، سقتنى الشهد، وكأن الكلاب استكثرت علينا السعادة، فغدروا بالوطن، شعرت بأن سكيناً انغرس فى لحمى، فى قلبى، فى..

ومنذ ذلك اليوم يا أشرف، و أنا لم أستطع...

نعم، نعم يا أشرف، كانت تحاول معى ولكنى فى كل مرة...

قال الطبيب أنى سليم مائه بالمائة...

حتى السحرة – اثمترس منهم – قال : لا عمل هناك و لا يحزنون ... حملت همومى، ولملمت نفسى المبعثرة، و مضيت إلى الكنيسة، خلعت نفسى أمام القسيس، رميت حمولتى، بوجه باش قابلنى، و بيدين حانيتين هدهد علىّ، أحسست بأنه يمسك قلبى بين إصبعيه، ويغسله بماء الثلج والمطر، قال كلاماً كثيراً عن الوطن، والهزيمة، والرجولة..

كلامه يتسلل حانياً ناعماً إلى قلبى، يدغدغ أحاسيسى، ويرقق مشاعرى، وشعوراً دافئاً دافقاً يتملكنى...

كنت بين اليـــقظة والمنام، بين الوعى واللاوعى، أحسست به كجراح ماهر بلا مشرط يزيل غشاوات و يبدد سحباً، و...

أدركت أنه لا علاج لحالتى إلا بدحر اليهود و طردهم شر طردة

انسالت دموع ميخائيل...

سنوات ست يا أشرف...

(٨)

المرأة الأنيقة تعلن عن لحظة تقطيع تورتة عيد الميلاد، يلتف حولها المدعوون و يرددون مع

المطرب النصف مشهور والنصف موهوب :

هابى بيرس دى...

يجلس أشرف فى الكوشة بجوار هند، تزغرد أمه وتغنى بنات القريه، يقرصه شباب القرية والبنات يقرصن هند،

يسلمه قائد الكتيبة هدية، يعانقه ميخائيل، وتعانق جيلان هند..

يهمس فى أذن ميخائيل بكلمات...

يضحك ميخائيل ويقول فى ثقة :

- "يا حبيبى أنا أستحم فى اليوم الواحد خمس مرات "

مصرى

لما رأى منى إصراراً _ أخذنى بين ذراعيه منتشياً، وبريق فرح فى عينيه.. تأبط ذراعى، و مشينا صامتين.. ولم أجرؤ على القول : إلى أين؟

.. تجاوز السبعين.. و لم يزل صلب العود، مفرود الظهر والوجه.. كلما تفرست فى وجهه تذكرت ملامح المصرى القديم.. ولأنى أول أحفاده أخذت اسمه.

وقالوا : رسمه وسمته

قطع جدى الصمت و قال :

– لم أتمنى الشباب _ قدر ما أتمناه اليوم!!

قلت ضاحكاً :

– أعروس جديدة تشتهى يا جد؟!

كنا قد وصلنا إلى شجرة الجميزة العتيقة، فجلس، ومدد ساقيه، وأسند ظهره بجذع الجميزة وقال :

– العروس _ أسيرة _ فى ليلٍ بهيم غدروا _ والغدر من طبعهم.. تتراءى لى فى صحوى ومنامى.. فى عينيها دموع..

– نعم يا جدى، تنتظر الفارس..

فى القرية تأجل الحب.. و الزواج.. و الغناء.. وخرجت القرية عن بكرة أبيها.. إلى محطة السكة الحديد – يودعون عشرة فوراس يتقدمهم مصرى .. أقسموا بالتين والزيتون وطور سنين، ليلبوا نداء العروس الأسيرة.

.. أيادى البنات فى أيادى الفوارس طرية، تلاقت العيون وتعانقت، ورفت ابتسامات خوف على شفاه البنات، قالت البنت خطيبة مصرى للبنات وهن عائدات يبكين :

– ما عاد لقمر قريتنا معنى، و لا النهر، و لا الغيطان..

قلن وهن يجهشن وينهنهن :

– سنعتصم بالصبر و الصلاة و نأوى إلى ذكريات أيام حلوة _ نروى ظمأنا، ونطفئ لهيبنا..

قالت :

– فلتهاجر العصافير يا بنات، ما عادت أصواتها فى الفجر تطربنى، ولا تسّاقط الندى على أوراق الشجر يبهجنى، فمصرى كان العصفور الذى يغرد وينقر على شباكى.

حمل الفوارس أحلامهم، و أحزانهم، و مضوا..

قال مصرى :

– سنمضى و زادنا العلم و الإيمان.

قالوا :

– و الصبر..

اصطفوا مع آلاف غيرهم _ صفوفاً وطوابير..

– خسرنا معركة ولكننا لم نخسر حرباً..

– نحن الأطول نفساً، والأكثر خبرة.

يجلس مصرى مع رفاقه الجنود فى فترات الراحة، يتذكر جده الذى أخذ من المصرى القديم ملامحه، وصبره، وقوته، وحكمته، وتدينه،.. ويحكى عنه للجنود.. يقول :

يقول جدى :

– كنا أهل تجارة، نعيش فى المنصورة و للمنصورة تاريخ عريق فى مقاومة المحتل، فرنسيون و من بعدهم إنجليز – تاريخ يحفظه أبناء المنصورة _ يفوق التاريخ المكتوب، فالتاريخ الشعبى أكثر نبضاً و حياة من التاريخ الرسمى.

.. فترات الراحة قليلة، قليلة جداً...

يحلقون حول الأسلحة برشاقة وخفة، يتعاملون معها بذكاء ويتدربون بهمة.. يقول مصرى لرفاقه الفوارس

فى الليل :

كان ضابط إنجليزى، ذو وجه أحمر، وشعر أشقر، يطوق جيده بسلسلة ذهبية و لا تفارق اللبانة فمه، يحمل حقيبة فى كتفه بداخلها زجاجتىّ خمر وسندوتشات لحم بقر و لحم خنزير وثمرات جوافة، وقطفىّ عنب، و بلحاً أصفر وأحمر ورطباً.. يجوس فى شوارع المنصورة كامرأةٍ عاهرة يبحث عن صيد!!

وأصبح معروفاً لبعض المراهقين المهمشين، فيقودونه إلى شقق مهجورة فى أطراف المدينة.. إلى خرابات.. وغيطان بعيدة يتلذذون بالخمر واللحم و الفاكهة، ويقضون معه وقتاً.. يفرحون بأموال يأخذونها منه.. تعينهم على العيش فى زمن ندر فيه العمل وقل الزاد وشح المال..

على الشاطئ الآخر من القناة يقف العدو مزهواً، يرفع رايات النصر، ويحاول أن يبث الرعب فى القلوب عبر الأثير والصحف – نحن نقهر ولا نُقهر، نهزم ولا نُهزم، نبيد ولا نُباد.. يعصم الضباط جنودهم بالتاريخ والصبر، وبالعرق فى التدريب..

يقول مصرى :

– كان الضابط الإنجليزى ذو الوجه الأحمر والشعر الأشقر، يعس فى المدينة، وقع نظره على جدى فى دكانه، تفرس فى ملامح جدى الفرعونية، وراح يراقبه وهو منهمك فى البيع للزبائن، فجدى وهبه الله بسطة فى الجسم، وعافية تهد جبل، تحين الضابط فرصة خلو الدكان من الزبائن ودخل يتراقص فى مشيته " كالعوالم ".

يقول جدى :

– رائحة عطر أنثوى تسبقه، انتشرت فى فضاء الدكان الكبير وملأت أنفى وقف قُبالتى تماماً، وقبل أن أسأله عن طلبه راح يتملى فى وجهى بعينين زرقاوين، قرأت فيهما رغبة امرأة جائعة!! استغفرت ربى وحاولت أن أبعد عن هذا الهاجس الشيطانى من رأسى، البنت خطيبة مصرى والبنات خطيبات وحبيبات الفوارس يحلقون مع جد مصرى حول الراديو يتابعون الأخبار والأنباء.

يقول الجد للبنات :

– كسرنا أنوفهم فى رأس العش، فأبطال المشاة أوقفوا زحف طابور من المدرعات.. خطوة خطوة.. الصبر يا بنات.. كانت هذه الأرض يا بنات مثل صحراء جرداء.. لا زرع فيها ولا ماء.. لا يسكنها غير ذئاب وأفاع وجرذان وسحالى. ولما صممت على الإقامة فيها. كانت أم الأولاد أسبق منى فى خلع زى الترف والدعة.. أقمنا خيمة كخيام البدو، ورحنا نحفر، بأيدينا بئراً، ما كنا نملك غير فأس وكوريك ومقطف وإرادة وعزم. بفأسى أضرب الأرض و تحمل هى الرمال إذا تصادف ومر بنا قوم يتغامزون ويضحكون، ويظنون أننا أصابنا خرف أو مس من جنون.. أول خبطة فأس تتبعها الثانية، والثانية تجر الثالثة و.. أول ثانية تجر دقيقة والدقيقة تجر ساعة والساعة تجر يوماً واليوم يجر أسبوعاً فشهراً... اعتصمنا بالصبر وبريق الأمل.. ولم يخب الله لنا كداً ولا تعباً، فانفجر الماء، صحنا، فرحين هللنا، كبرنا، وارتوينا، استصلحنا فداناً، وفدان يجر فداناً.. ابتنينا حجرة و حجرة تتاخم حجرة فتصير داراً، ودار تجر داراً، فزقاق، فحارة، فشارع.. وها

أنتم ترون يا بنات قهرنا الجدب والتصحر واكتست الأرض باللون الأخضر و ها هى الحكومة تمد لنا النيل، الصبر الصبر يا بنات.. فرأس العش، ستجر عمليات، عملية تجر عملية أكبر، فأكبر حتى نصل إلى المعركة الكبرى، الفاصلة، وما كاد الجد ينهى حديثه حتى قطع المذيع البرنامج فى الراديو وراح يزف النبأ التالى :

"قامت قوات من البحرية المصرية بضرب المدمرة إيلات الإسرائيلية."

نطت البنات فرحات، تعانقن، و قبلنا الجد..

يقول مصرى فى إحدى رسائله : " تفرقنا على ألوية مختلفة وأسلحة متفرقة و اتفقنا أن نلتقى هناك _ على الشاطئ الآخر من القناة.. "

فى الليل يُخرج الجد رسالة من مصرى ويقرأ منها لأهل القرية الذين يجتمعون كعادتهم كل يوم فى داره.

"لا تصدق يا جد أننا هنا لاهون أو ساكتون فالخيال يا جد يتواضع أمام أعمال البطولة التى نقوم بها.. فلا يوم

يمـر دون أن نقـوم بعـمل بطولى، نتـسلل إليـهم فـرادى أو جماعات، ليلاً أو نهاراً، نزرع لغماً، نخطف جندياً، نشتبك معهم، وجهاً لوجه بأسلحتنا الآلية، نحن هنا نثير فيهم فزعاً و نلقى فى قلوبهم رعباً.. و.. "

"بالأمس يا جـدى كنت أحكى للجنود حكايتك مع الضابط الإنجليزى ذى الوجه الأحمر، والشعر الأشقر.. "

يضحك المجتمعون، ويطلبون من الجد أن يعيد على أسماعهم حكاية الضابط الإنجليزى _ فكل أهل القـرية يحفظونها _ ولا يملون سماعها، وكلما لاحت فرصة ألحوا على الجد أن يرويها، بتفـاصيلها الدقيـقة.. وإذا نسى تفصيلة صغيرة بحكم السن ينبهونه..

فقال أحد الظرفاء :

كـان خـده ناعـمـاً، وأسنانه لامـعـة و فـمـه أطيب من فم البكر، ذراعه بضـة، ويده طرية، أملسـاً، أملس من المـرأة فى ليلة العُرس، لحـمـاً ابيضَ مـشـوياً بحـمـرة، يفـوح منه عطراً.. أكل هذا يا جد.. و لا.. يضحك المجتمعون.. _ لو أنت مكان

الجد..

يقول ضاحكاً :

- والله كنت.....

يقول مصرى للجنود :

- "ولما امتدت يده الطرية الناعمة بين فخذى جدى، لم يتمالك نفسه فرجع للخلف وبكل ما يملك من قوة وعزم ناوله بيده فى وجهه، فوقع على الأرض ميتاً... "

فجرى جدى إلى جدتى، أخذها وحملا ما يستطيعان حمله وساعدهما الناس على الهروب من المنصورة _ بعد أن تخفيا فى أزياء بدو وظل ماشياً هو وجدتى فى الغيطان، تحملهم بلاد وتحطهم بلاد، وفى الطريق كان يشترى خِرافاً ونعاجاً وماعزاً وتيوساً حتى وصلوا إلى السنبلاوين، فديرب نجم.. واختار مكاناً لا تطأه أقدام لا إلى السنبلاوين ولا إلى ديرب نجم وظل الإنجليز يبحثون عنه إلى أن خرجوا من مصر..

يقول الجد للبنات :

بالصبر و العرق يا بنات. نصنع المعجزات، لو رأيتم هذه الأرض يوم أن وطأتها أقدامنا لما تصورتم لحظة ــ أن تقوم عليها حياه.. لم ينقض غير سنوات قليلة، قليلة جداً حتى استوطنها مئات، ضاقت بهم الحياة فى السنبلاوين وفى ديرب نجم، فجاءوا يبحثون عن الرزق، أرض بكر باحت بسرها، وفجرنا خيرها بالعرق والصبر.

يقول مصرى للجنود وهم فى فترات الراحة :

– "أول ما فعله جدى.. أقام مصلى صغيرة، افترشها بالقش، فصارت فيما بعد مسجداً كبيراً، وقبل أن يبنى داراً شيد مقبرة، فكانت نواة لمقابر القرية ولما اتسعت القرية وتنامى سكانها، ابتنى مدرسة، نحن أول من تخرج فيها "

تقول البنت حبيبة مصرى وخطيبته فى رسالتها :

– "من صوف الغنمات أغزل لك شرزاً وطاقية، ومن قطننا الأبيض أنسج لك قميصاً وفانلة، ومن سنابل قمحنا أصنع لك فريكاً وخبزاً طرياً، فى كل يوم – أعد فطورك –

من لبن البقرة وبيض الدجاج، والديك الذى يؤذن لأربعين ليلة أتتمر له _ وأقسم أن يكون عشاءك.. فمتى تعود يا مصرى؟!

يقول مصرى للجنود :

- "أبى رحمه الله.. لم يمسك سلاحاً، لا رأى دبابة فى حياته ولا مدفعاً، لا يعرف الفرق بين البندقية والطبنجة، لا تطوّع فى ١٩٥٦ ليقاتل كغيره ولا حضر حرب اليمن، ولكنى أعتبره شهيداً.. شهيداً دون أن يدخل حرباً، دون أن تُراق منه قطرة دم، فأبى حارب مع جدى القحط والتصحر.. بدأب و صبر.. فجرا الماء، وصنعا حياة،مرات قليلة، قليلة جداً _ التى كنت أرى فيها أبى، فأبى ظل مغروساً فى الغيط فى الليل والنهار، فى الحر والبرد، يصارع جرذاناً وأفاعى وذئاباً، يحمل تلالاً من رمل، يسوى نتوءات فى الأرض، يحفر آباراً وقنوات، يغرس أشجاراً، يبذر حباً، يرعى غنماً وإبلاً.. حارب فقرها، وشحها.. و.. ينظر مصرى ورفاقه إلى الشاطئ الآخر من القناة.. ها هو العدو أمامنا.. ماذا ننتظر؟

سؤال يلح على كل الرؤوس _ ست سنوات نلملم فيها الجراح، تحملنا مشاق التدريبات، كسرنا حاجز الأزمنة القياسية فى التعامل مع المعدات والآلات، مئات العمليات أجريناها على المعركة، واجهنا العدو فى عمليات متفرقة، وصلنا إليه فى عقر داره، قمنا بعمليات فدائية تفوق الخيال.. ما معنى أن يتعامل جندى مشاه مصرى بسلاحه الشخصى مع دبابة للعدو فيصيبها و تتعامل طائرة هليكوبتر مع طائرة حربية متطورة للعدو فتسقطها.. ألم نخطف منهم جنوداً، ونزرع ألغاماً، ونضرب لهم مواقع مؤثرة.. ماذا ننتظر؟!

تقول البنت خطيبة مصرى فى رسالتها :

– "صنعت مرتبة ولحافاً و اشتريت أطباقاً وملاعقَ وحللاً ووابور جاز وطستاً للغسيل وآخر للحموم وثالثاً للعجين.. واشترى جدك سريراً ودولاباً، وحصيرة، وطبلية للطعام، ودهك الدار، ورشها بالجير ".

"كل يوم أخلع غطاء رأسى، وأقوم فى نصف الليل، أدعو عليهم وأزعق بأعلى صوتى يا رب.. فرق جمعهم، وشتت شملهم، وخذهم يا جبار أخذ عزيز مقتدر، قادر

يا كـريم، ترسل عليـهم جنوداً، طيـراً أبابيل، ترمـيـهم بحجارة من سجيل، وتجعلهم يارب كالعصف المأكول ".

تقول البنت حبيبة مصرى وخطيبته فى رسالتها :

- "ها هو شهر رمضان جديد يهل، لا نصنع فيه كعكاً ولا بسكويت، ولا نلبس فيه جديداً، يوم أن سـرقـوا الأرض، سرقوا الأعياد، وسرقوا الأفراح، فمتى.. متى يعود الفرح يا مصرى؟! "

حافياً نهض الجد، قفز فى الهواء ودموع الفرح تبلل وجـهـه يهلل فـى الشــارع، يهـتف و ينـادى.. يا أم مـلاك، الجــيش المصرى عبر القناة.. تزغرد أم مـلاك _ يــا أم سـعـيـد، الجـيش المـصـرى عـبـر إلى الشـاطئ الآخـر من القناة.. تزغرد أم سعيد.. من الدور تنطلق الزغاريد، يمتلئ الشــارع بالأطفـال والنسـاء والصـبـيـة، يأتي الـرجـال من اللغيطان مهرولين.. يتعانقون، يهللون، يكبرون.

الرحلة

.. ثوان، بضع ثوان فقط، كلما حاولت أن أمر عليها عابراً.. فشلت، ملايين الثوانى مررت بها دون أن توقفنى أو أشعر بها.. إلا هذى الثوانى، الزمن توقف عندها.. لتسبب لى صداعاً مزمناً وأرقاً.. قد يسير الزمن هادئاً بعذوبة ورقة، يمر كنسمة فجر ندية.. وقد يثور كموجة خادعة تسحبنا فى دوامة وتلقينا فى قاع محيط لا قرار له.. قد يثور كأسد جائع يفترس أحلامنا واللحظات الحلوة..

.. ثوان.. ثوان معدودات توقف الزمن عندها، التصقت بذهنى فشتته ورسخت فى قلبى فأعيته، حاولت أن أسر

بهـا خـارج نفسى، حـاولت أن أخنقـهـا بيـدى، حـاولت أن أدفنها، حاولت.. وحاولت.. ولكنى فشلت، ولم يكن أمامى بُد من المجئ إلى هنا..!.

ما هذا؟.. موسيقى هادئة، وأزنوار خافتة، ولوحة معلقة على الجدار، تحتل مساحة كبيرة من الجدار المقابل للسرير الذى أتمدد عليه.. شمس تولد من رحم فجر، الأمل.. أى أمل يادكتور!.. لا تظن يادكتور أنك صياد ماهر وتستطيع أن تُمسك باللحظات الهاربة.. أو تقبض على الجرثومة التى تنهش نفسى وتقلق مضجعى.

تخرج صلاح فى كلية الهندسة، وحياته مسطرة وقلم وفرجار، اتسمت حياته بالدقة والنظام - كرسوماته وتصميماته - بزّ كل أقرانه، وصعد بسرعة الصاروخ.. ذاع صيته وانتشر كأمهر مهندس فى بر مصر، أخذ المنحنى يصعد، ويصعد، يثب وثبات محسوبة بدقة، وفى رحلة القفز والصعود ومحاولة بلوغ القمة صادفها هناك على الشاطئ.

آلاف النساء التقيت بهن، فى الشارع، فى الكلية، حتى فنانات السينما المشهورات، والشاليهات، وأبداً، أبداً لم

تخترق أى منهن قلبى، ولم تتحرك مشاعرى قط، رغم تلميحات بعضهم وتصريح الأخريات، حتى الراقصة المشهورة التى رقصت لى وحدى فى الفيلا التى صممتها لها، وحاولت أن توقعنى فى تلك الليلة وفى ليال أخرى.. لكنها فشلت.. أتضحك..

اضحك يادكتور..

أنا واثق يادكتور أنك لو كنت طبيباً للممثلات أو الراقصات لضعفت.. ومن يدرى.. ربما لو امرأة، أية أمرأة لعوب، جاءت إلى عيادتك، وتمددت على هذا السرير، وكشفت عن ساقيها، و.. عفواً عفواً يادكتور، أنا فقط قلت.. ربما.. نعم.. نعم يادكتور.. لم أر فى أى منهن جمالاً، ولا فى أى امرأة أخرى، حتى صادفتها هناك على الشاطئ!!.

كانت تمسك دفتراً وقلماً، وتابع بعينيها الجميلتين الشمس وهى تغيب فى البحر.. قالت: «فى الصباح تخرج الشمس من البحر، تلف الدنيا، كل الدنيا، تعطى البشر والدفء، ثم تعود آخر النهار لتنام فى حضن البحر».. تسللت إلى قلبى بهدوء ونعومة كما يتسلل

ضوء الشمس من خصاص الشباك، فيبدد عتمة الغرفة المغلقة.. أبداً.. أبداً يادكتور، أنا لست بشاعر، ولا حاولت الشعر يوماً، ولكنى أحببت الشعر يوم أن أحببتها..

أتعرف يادكتور.. أنى اكتشفت أن الهندسه شعر، كما اكتشفت هى أن الشعر هندسه!! فحينما يكون الحب، تكون لحظات الكشف والتجلى.. ياه ياه يا دكتور، صور وحكايات وذكريات تتسال على الذاكرة، وتتدافع كلها تحاول أن تقفز، أعرف أنك الآن كمخرجى السينما ستأخذ هذه الصور، وهذه اللقطات تركبها وترتبها، وربما تصير كالإحصائى تبوبها وتجدولها وتحولها إلى أرقام ورسومات ومنحنيات..

.. فوجئت بى ذات مرة ونحن نتأمل البحر، وهو يحتضن الشمس وقت الغروب، بأنى أخرج شريط القياس ومسطرة ومنقلة وأوراقاً، وأوقفتها قُبالتى ورحت أقيس خصرها، وأسجل مقاسه على الورق،وأقيس عنقها، ظنت فى البداية أنى سأشترى لها فستاناً، ولكنى لما رحت أقيس وركها وكعبها وطول قدمها، تسرب إليها شك، وانفجرت ضاحكة

لما رأتنى أقيس المسافة بين نتئ عينيها وطول أنفها،ومحيط فتحتى الأنف وطول الهدب وطول شعرة الرأس، وارتفاع الخدين، وانسيابية الذقن، وحجم الصدر، وقطرى نهديها.

واستلقت على بطنها من الضحك وهى ترانى أمسك بالآلة الحاسبة، أجمع وأضرب وأطرح وأقسم، وقرأت الجا والجتا والظا والظتا وزوايا ارتفاع وزوايا انخفاض، صرخت ضاحكة :

- "ماذا تفعل يا مجنون؟ "

طول عمرى يا دكتور وأنا أعشق التناسب بين الأشياء، وأرى الجمال فى هذا التناسب وهذا التناسق، فإذا اختل هذا التناسب يكون القبح.. كان تناسباً عجيباً ودقيقاً، ذلك التناسب والتناسق الذى شدنى إليها فى البداية، وأكدته علوم الهندسة والحساب.. كان أعظم معمار هندسى أكتشفه فى حياتى.

.. كنت أحدثها عن التناسب والتناسق فى الكون، وأحدثها عن التناسب والتناسق الذى يجمع تقاطيعها

وملامحها،ويلم كل أعضائها فى منظومة متكاملة،فتبدى ارتياحاً، وألمح فرحة تكاد تنط من عينيها..

تصور.. تصور يا دكتور أن هذا الجسد المتناسب والمتناسق يحمل بين جنبيه نفساً شاعرة مرهفة، تذوب رقة وعذوبة، أذكر.. أذكر يا دكتور أنها فاجأتنى بقولها "أتقرأ الشعر؟!" قلت متلعثماً : " أحياناً "، قالت : لمن تقرأ؟ "، أجهدت الذاكرة وقلت "......"، ضحكت و قالت " أتقرأه لأنه مهندس " ولأول مره أعرف أنه مهندس، فقلت خجلاً "ربما" ودخل الشعر فى دائرة اهتماماتى وأصبحت دواوين الشعر تزاحم كتب الهندسة أرفف مكتبتى.

.. الغريب... الغريب يا دكتور أن كل قصائدها التى نُشرت والتى لم تُنشر، لم تتحدث فيها عن الرجل، الذى من المفترض أنه محور اهتمام أى أنثى، ولم ألمح فى قصائدها أى ملمح أو إشارة لفارس كان فى حياتها أو فارس تنتظره، فلم تُشر إلى الرجل الذى سقط من قرص الشمس إلا بعد أن التقينا !قالت : "أنبأنى قلبى بأن

حبيبى سيسقط من قرص الشمس وقت الغروب وهى تحتضن البحر "

.. وكنت أنا يا دكتور ابن الشمس المنتظر، الذى أشرق فى قلبها، ولأول مرة أرى الحب فى ومضة العين، وفرحتها عند اللقاء، يدها الطرية فى يدى، رقيقة ناعمة، تعانق قلبى، نحلق طرياً على الشاطئ، ونسمات البحر تداعب خصلات شعرها الأشقر الجميل.. أبحر فى عينيها الزرقاوين، بصوت رائق، تلقى على قلبى ما كتبت من أشعار، ولأول مرة أكتشف أنى كلمة حلوة تخرج من قلبها، أرانى على شفتيها الرقيقتين معنى جميلاً، لحناً، عصفوراً من عصافير الكناريا، نهراً من حب مُصفى : " سأتيه دلالاً يا حبيبتى.."

تدلّه يا قمرى، فأنت قطرات ضوء تسّاقطت على قلبى.."

وما عاد يا دكتور البحر هو البحر، ولا القمر هو القمر، ولا الزهر هو الزهر، ولا الأرض هى الأرض، ولا الناس هم الناس، ولا الحياة هى الحياة وما عادت رسوماتى وتصميماتى هى رسوماتى و تصميماتى..

"سأسكنك يا حبيبتى قصراً، ليس له مثيل على الأرض"

كنت يا دكتور مشدوهاً، وفى حالة وجد، وأنا أصمم هذا القصر لحبيبتى، لم أشعر بالمكان ولا بالزمان، ولا بالجوع ولا بالعطش، فكرت فى ديمومة الحب وصيرورته وخلوده، فى الجسد الذى لا يبلى، والزمن الذى لا يفنى، ودرست تصميمات الفراعنة، والبابليين، و الآشوريين، عرَّجت على الهند و الصين، شرَّقت وغرَّبت يا دكتور وهى لا تغادر عقلى ولا تفارق خيالى، أسمعها لحناً جميلاً فى دقات قلبى، أنفاساً دافئة تتردد فى صدرى، سألتنى : " كم لبثت فى تصميم هذا القصر؟، قلت يوماً أو بعض يوم، ضحكت وقالت " :بل لبثت سنين عدداً "

نظرتُ فى عينيها الزرقاوين وقلت دهشاً : ما زلت أنا كما غادرتك، ذقنى حليق وشعرى قصير ووجهك كالصبح إذا تنفس..

.. وامتدت يداها الحانيتان تتحسسان وجهى، وكأم رؤوم تدلك فروة رأسى، ودفنت رأسى فى صدرها، واستحلبت الحنان قطرات، وأحسست بأنى أنكمش وأنكمش وأصير طفلاً، أحتل رجليها، تهدهد علىَّ وتحكى لى عن جنة ربنا –

التى نعود فيها شباباً، نخلد فيها ولا نموت، نهمس حُباً،نغنى فيها ونرقص،بلا قيود بلا حدود، و.. غفوت على صدرها أو على قلبها وصحوت وهى لم تزل تتحدث عن جنة ربنا!

قلت : فى تصميماتى هدمت نظريات وبنور حبنا ابتدعت نظريات، ألهمنى حبك رؤى وأفكاراً، أخرجت أوراقى ودفاترى وقلت انظرى إلى رسوماتى واقرأى أفكارى.. ولأول مرة - أرى يا دكتور - سحابة من الحزن تغيم فى عينيها، كانت تنظر إلىَّ وأشعر بأنها تحبس فى قلبها الأخضر هماً.. قلت حبيبتى و مليكتى تحبس فى عينيها دموعاً - كيف؟ وكأنى نكأت جُرحاً، فانفجرت باكية تنهمر الدموع من عينيها كشلال، كنت لا أصدق،فماذا جرى؟.. قالت :

انظر إلى عينىَّ، قلت جميلتان كصحو السماء بعد إمطار.. قالت : انظر إلى وجهى وإلى جيدى وإلى عنقى ألا ترى آثار الزمن عليها، ألا ترى تجاعيد الوجه وكرمشه الجلد.

ضحكت وقهقهت وقلت :ما هذه التخيلات يا حبيبتى، لو رأيت تصميماتى، وقر أتى نظرياتى لعرفت أنى نجحت فى إيقاف الزمن..

قلت يا دكتور : من أدركه الحب وهو فى الثلاثين سيتوقف به الزمن عند الثلاثين، ومن أدركه الحب فى الأربعين سيتوقف به الزمن عند الأربعين، وتبدأ حياة جديدة تختلف عن الحياة الأولى، فالحياة الأولى بدأت بلقاء منى ببويضة، أما الحياة الثانية بدأت بالتقاء رُوحين، بتقابل نفسين، قلب يذوب فى قلب، ونفس تنصهر فى نفس.

حين صادفت رُوحى رُوحها على الشاطئ، وتعانقا عناقاً حاراً، انهالت الرؤى وتوالت الاكتشافات والفتوحات والفيوضات، العين ما عادت هى العين، والأنف ما عاد هو الأنف، والأذن ما عادت هى الأذن، والجلد ما عاد هو الجلد، اللغة نفسها ما عادت هى اللغة، صار لحبنا يا دكتور لغة خاصة ورموزاً، وشفرات، ربما يأتى بعد ألف عام أو يزيد من يفك رموزها كما فعل شامبليون مع لغة

الفراعنة ، سيكون كشفاً عظيماً، وتحولاً هائلاً فى حياة البشرية،.. نعم.. نعم يا دكتور كان لابد أن تكون تصميمات الحياة الثانية مختلفة عن تصميمات الحياة الأولى، كان لابد أن أعيد تشكيل العالم، وأعيد هندسة الكون وتصميمه، فاختزلته فى معادلات رياضية وفيزيائية جديدة وأدخلت أبعاداً جديدة ومفاهيمَ جديدة.. فرحاً.. فرحاً يا دكتور خرجت من صومعتى، وحملت بشراى، وطرت أزف لها البشرى، بدلاً من أن تحلق طرباً معى، وجدتها فى محرابها ساهمة، شاردة، وكلما دخلت عليها المحراب وجدت عندها أكداساً من كتب الدين، وكتب الفلسفة، وتسود فى دفاترها خواطر وشوارد عن الكون والعالم والحياة، وأشد ما أحزننى أن ما تسوده يتعارض مع رؤاى وأفكارى ونظرياتى.. لماذا؟.. لماذا تنظر فى الساعة يا دكتور؟.. هل سرقك الوقت؟ كم من الأوراق دونت، وكم أسطوانة موسيقى بدلت، وكم من شريط عبأناه..؟ مشكلتك يا دكتور أنك ما زلت تعيش فى حياتك الأولى - رغم تجاوزك الخمسين.

– آه لو أدركك الحب قبل عشرين عاماً، لبقيت شاباً عفياً لا تشيخ روحك ولا يهرم بدنك ولم احتجت إلى هذه النظارة الطبية..

فى عالمى يا دكتور وفى دنياى الجديدة لا يوجد أطباء، ها ها.. فنحن المحبين لا نمرض ولا نشيخ ولا نهرم، كلمة الحزن اختفت لأننا لا نحزن، وكلمات مثل القبح والظلم والاستغلال و.. مئات الكلمات اختفت، مسكين.. مسكين يا دكتور، أراك مكروباً، ومهموماً، كم سيجارة أشعلت وكم فنجان قهوة شربت؟

المدهش يا دكتور أنك دوماً مبتسم، هل فعلا أنت مبتسم لأنك سعيد وإن كنت سعيداً فلماذا أنت سعيد؟

معذرة.. معذرة يا دكتور فاتنى أن مهمتك أن تسأل أنت وأنا أجيب،سل.. سل يا دكتور؟

.. نعم.. نعم يا دكتور، ولدت لأب مصرى ولأم أمريكية،

لا أذكر أبى ولكنى أتصوره، ومرات قليلة التى رأيت فيها أمى وهى بالمناسبة موسيقية قالت : " جاء أبوك من مصر

آخذاً من الهرم شموخه ومن النيل عذوبته، ليدرس العلوم، وقعت فى هواه، وذبت فى وجهه الأسمر، كان يقضى جُل وقته بين الكتب والمراجع وفى المعامل وفى مراكز البحث، كنت فخورة به، وسعيدة بتفوقه، ونبوغه، ذاع صيته وانتشر فى الأوساط العلمية، فاجأنى ذات يوم وقال : فى غضون أشهر قليلة سنرحل.. قلت : إلى أين؟.. قال بحزم : إلى مصر، ولزمت الصمت، فكان من الصعب مناقشته فى قرار اتخذه، وأرجأت الحديث معه لوقت لاحق أستطيع فيه أن أقف على تفاصيل وأسباب هذا القرار المفاجئ."

تقول أمى : " بدأ الخوف يتسرب إلى نفسى، مكالمات هاتفية من مجهولين تهدد أباك بالقتل إذا صمم على الرحيل.. ورسائل مجهولة، أصابنى القلق والخوف، توسلت إليه، وقبلت يديه وقدميه ليعدل عن قراره، ولكنه كان عنيداً، قالت أمى : لأول مرة أكتشف أن للعلم فى بلدنا مافيا وعصابات - تزداد شراسة ووحشية عن مافيا وعصابات المخدرات - تحتكر العقول الفذة، وتوظفها لخدمتهم وخدمة من يدفعون، والمشكلة أنهم أرادوا أن يحرموا مصر من علم أبيك ويقصروه على دولة

معادية لمصر..

نعم.. نعم يا دكتور أنا ابن العالم المشهور... الذى قُتل فى ظروف غامضة.

أمى.. أمى يا دكتور أذكرها، كالفراشة، كعصفور، درست الباليه والموسيقى والأوبرا، لها قلب رقيق ناعم، إذا عزفت، وإذا رقصت، وإذا غنت ينساب الدفء إلى قلبك خدراً لذيذاً، وتنتشى رُوحك وتتألق، تشيع البهجة فى النفس، وتتحرر الروح من أغلال الجسد وتنطلق،.. لا أكتمك سراً يا دكتور إذا قلت أنى أخذت موسيقى أمى وأغنياتها ورقصاتها، وجعلتها مواد إجبارية تدرس فى الحياة الثانية.

.. نعم.. نعم يا دكتور الرصاصة التى لم تخطئ رأس أبى أسالت الدماء من قلب أمى الرقيق،لم تحتمل الموقف برمته، فقضت جُل حياتها فى مصحة نفسية وعقلية،.. كنت أذهب إلى المصحة لأمضى العطلة مع أمى، التى لا تفيق إلا قليلا، كنت أبكى، وكانت تحضننى، وفى لحظات الإفاقة كانت تقول كلاماً، أذكره.. نعم أذكره يا دكتور..

أذكره جيداً.. كانت تقول : لماذا بلدنا تُعلن غير ما تبطن؟.. لماذا تحتكر جهود العلماء وتحرم بلادهم من علمهم؟.. كانت تذكر السياسة والسياسيين،والمخابرات، والحرب والشر، و.. كلمات كثيرة تبدو لعقلي الصغير كالألغاز واللوغاريتمات، وحينما كبرت حللت هذه الألغاز وفككت هذه اللوغاريتمات، كانت تقول يا دكتور : لماذا قتلوا حبيبي؟ حبيبي طيب ومن بلاد ناسها طيبون.. معقول عاوزين يسلموا حبيبي وعلمه لأعداء بلده ليكون خنجراً وقنبلة وباروداً.. صلاح.. هاتوا حبيبي صلاح.. أرتمي في حضنها وأبكي.. تمسح دموعي وتهدهدني.. تغني بصوت حزين.. لماذا يخنقوا القمر ويحرقوا الزهور!!

.. روح يا صلاح عش في بلد أجدادك، ومن الطين والحجارة مثلهم، اصنع حضارة، وابن حياة، انشد سلاماً وازرع حباً، ووروداً، وفلاً، وزيتوناً ونخلاً، كانت تضمني إلى صدرها وتبكي : "هناك الشمس والنيل والناس الطيبون "

وكانت في آخر أيامها يا دكتور تعانق عيناها السماء، وترى ما لا أراه، كنت أحدق في السماء لعلي أرى الشخص

الذى تحـاوره، ومن حـوارها عـرفت بصـعوبة أنه المسـيح : صلبوك وقتلوا حبيبى.. عُد لتلملم الجراح، لتُطبب القلوب، وتداوى النفوس، لتنشر المحبة.. أيها المخلص.. خلص.. أيهـا الآب الذى فى السـمـاء.. وكانت تتلو كلمات تقع فى قلبى ولا أعيها..

نعم.. نعم يا دكتور، كانت أمى جميلة، أجمل من رأت

عيناى، حلوة الملامح، عذبة التقاطيع، رقيقة كنسمة، كفراشة.. حبيبتى تشبهها تماماً، نفس العينين الزرقاوين، ونفس الشعر الأشقر، نفس الوجه الرائق، الهادئ، الوديع، الجـمـيل، أحـتفظ بأوراق لأمى فيـهـا بيـانات مـفـصلة : لحبيبتى.. نفس الطول، ونفس الوزن، تنطبق حبيبتى وأمى كل منهما على الأخرى تمام الانطباق، حتى فى طول الأنف والهدب، وحجم الصدر والخصر، فى طول القدم وانسيابية الذقن، فى كل الجزئيات والمنمنمات الصغيرة يتشابهان.

ما هذا الإلتماع الذى أبصره فى عينيك يا دكتور، وما هذه البسمة التى تقطر ألقاً على شفتيك، هل ومض فى ذهنك اكتشاف مفاجئ.. ربما أصابك ما يصيب الشعراء،

فحبيبتى فى أوج الانتشاء والذوبان والانصهار، كانت تخرج قلماً وورقاً وتدبج قصيدة، أذكر أن أمى - حتى وهى تعد الطعام _ تتوقف فجأة وتجرى تبحث عن النوتة الموسيقية وتدون فيها، أعرف.. أعرف يا دكتور أن الفكرة قد تومض كالبرق.. ولكن من يا دكتور يستطيع أن يمسك البرق ويقبض على وميضه؟.. مررت بهذه التجربة يا دكتور، كنت أرقب هذه الومضات وأنتظرها، وغالباً ما كانت تفلت منى، ونادراً ما أقبض .

عليها، حينما التقيت بحبيبتى على الشاطئ أحسست بأن ومضات سريعة ومتلاحقة تومض فى رأسى، نجحت فى الإمساك بها، وكانت النفحات تهب على رُوحى، والتجليات على قلبى، لحظات نادرة وخالدة، تصفو فيها النفس فتكون الخواطر والرؤى والأفكار.

.. قالت : انتظرتك كثيراً، وسأنتظرك حتى يجف العمر..

قلت : لن أغيب، يوماً أو بعض يوم وأعود.

كانت تهرب إلى البحر، قالت : كنا نعيش فى مدينة القنطرة شرق القناة، كنا نشعر بأننا جسر بين مدن الدلتا وسيناء، أمى إسكندرانية، وأبى سيناوى، أحببت البحر و الصحراء... شئ مهول أن يصحو الطفل على أصوات مدافع وطائرا ت، وجنود يقبضون على بنادق، قيدوا أمى أمام عينى، شئ فظيع.. لم يحتمل شاعر القبيلة المنظر، مات قبل أن يطلقوا عليه الرصاص، مزقوا أوتار عودى وكسروا البيانو،.. احتضننى جدى لأمى، وعشت فى الإسكندرية، كان أبى يهوى الخيل ويقرض الشعر ويتباهى بنسبه العربى، وجدى لأمى من أصل يونانى، عشق الإسكندرية، علمنى العزف والغناء - كسروا البيانو ومزقوا أوتار العود - كانت أمى تعلمنى على البيانو، وأبى يصطحب العود فى جلسات السمر، ينشد للقبيلة حكاوى وغناوى.

.. أهديتها يا دكتور عوداً وبيانو، عزفت لى ورقصت، رقص الموج والرمل والزهر، سمعت وشوشات النسيم، ورأيت ابتسامة الفجر، رأيتها يا دكتور فراشة بيضاء تحوم،

عصفوراً رقيقاً من عصافير الجنة، لحناً سماوياً لا يفقهه إلا أولى النهى.

قالت : حينما أرقص أعبر عن معنى، وحينما أعزف أعبر عن معنى، وحينما أكتب أعبر عن معنى، المعنى الذى أعبر عنه بالموسيقى لا أستطيع أن أعبر عنه بالشعر أو الرقص، والمعنى الذى أعبر عنه بالرقص لا أستطيع أن أعبر عنه بالموسيقى أو الشعر، نفسى... نفسى يا صلاح أمسك بالمعنى الغامض فى أغوار نفسى ولا أستطيع أن أترجمه إلى كلمات ولا إلى نغمات، فحينما سقطت يا حبيبى من قرص الشمس، خلخلت الراكد، وحركت الساكن، وأثرت الغامض، ولم يبق إلا أن أمسك بتلابيب المعنى وأفجره شعراً لم يقله أحد قبلى وموسيقى لم تُخلق بعد.

وتركتها يا دكتور تبحث عن القصيدة الغاربة، والمعزوفة الهاربة.. قالت : تلك القصيدة وتلك المعزوفة وتلك الرقصة ستكون هديتى لك فى ليلة العُرس. فرحاً غادرتها يا دكتور، أبحث أنا الآخر عن رسم و تصميم لقصر تسكنه،

لم يسكنه أحد من قبل، ولبثت يا دكتور يوماً أو بعض يوم، وعدت أحمل تصميماتى وأفكارى و نظرياتى، لأجدها فى حالٍ غير الحال،.. قالت :

- "اكتشفت أنك البراق الذى أمتطيه فى رحلة الإسراء "...، وتكلمت عن الصعود و العروج، و المسالك و الدروب، تكلمت عن الكرامات والفيوضات، والنفحات، كنت أجلس إلى جوارها و أشعر أنها مجذوبة،ولا تفطن إلىّ ولا تشعر بى، تحدق فى اللاشيئ و تبتسم، وحين تفيق تنظر إلىّ وتقول : أعد البصر كرتين ثم....، اقترب يا صلاح، أنت على أعتاب الوصول، لم يبق أمامك إلا خطوة.. بل خطوتين.

وحين قرأت يا دكتور ما سودته فى أوراقها، وجدت ألغازاً وأحاجى تستعصى على الفهم.. قالت: إشارات.. وكأن فى السماء مغناطيس يا دكتور، يسحب عينيها ورُوحها، وفى لحظة من لحظات الإفاقة القليلة.. القليلة جداً.. قالت : ياه.. ياه يا صلاح، غبت طويلاً، وصرت عجوزاً، وابتسمت، وقبل أن أنطق غابت بعينيها فى

السماء، صرختُ فيها : أنا كما غادرتك شعرى قصير، وذقنى حليق، أفيقى يا حبيبتى، فى هذه الأوراق أفكارى، وفى هذه اللوحة تصميم قصرك،.. قالت : " قصرى هناك، أراه، لا أستطيع أن أصفه بكلمات ولا نغمات... أفيقى يا حبيبتى، قصرك ها هنا على الورق !!

.. وفى ثوانٍ.. ثوانٍ معدودات،فاضت روحها بين يدى..

ثوانٍ.... بضع ثوانٍ فقط يا دكتور....،...

أربع قصص قصيرة جداً

١ - سعاد حسنى

أقسم الولد قائلاً : أن سعاد حسنى عندما تظهر على الشاشة - تلهينى عن المذاكرة وتشغلنى عن كل شئ فى الدنيا، تأسرنى بعينيها الجميلتين، وتجذبنى بخفتها ورقتها، تنثر زخات ضوءٍ تبدد مساحة العتمة، وأظل أدور فى مساحة جسمها الضئيل وملامحها الدقيقة، غطت صورها حوائط غرفتى، وأغلفة كتبى وكراريسى المدرسية، وملأت فراغ قلبى، وشغلت تفكيرى، تتسلل إلى غرفتى فى الليل تداعب أصابع البيانو، تغمز لى بعينيها الجميلتين،

تعـزف وتـرقص وتغنى وتتـشـابك أيادينـا وتتـعـانق عـيـوننا،
وتمـضى بدلالٍ وغنج، وفى الصبـاح أسـتيـقظ وألعن نسـاء
قريتنا البدينات وبناتها المسترجلات!!

٢- دون كيشوت

أقسم الولد قائلاً: أن المسافة بين الكلمة والفعل تزداد اتساعاً يوماً بعد يوم،وأن الجملة الاسمية فى اللغة العربية تأنقت، وتألقت، وتعطرت، وتعملقت، ولم نعرف من الأفعال غير أفعال الماضى وأفعال الأمر وقال :

- امتشقت سيفى، وامتطيت صهوة جوادى، وأقسمت لأضيقن المسافة وأمزقن الجملة الإسمية، وأبعث الحياة فى الجملة الفعلية، وأجعل الغلبة للفعل المضارع وأفعال الغد!!

- أغمدت سيفى فى كتب التاريخ.. وفى دفاتر الشعراء.. فى.. وفى.. وفى ،أحسست بأنى" دون كيشوت " أبله، أحارب طواحين الهواء، وارتد سيفى إلى نحرى، ووجدتنى وحيداً منزوياً فى زنزانة رطبة.

(٣) الخروج من الدائرة المغلقة

لما بشروا أبى بأنثى للمرة السادسة، اسود وجهه ولم يوقد فى بيتنا نار ولم أر الابتسامة تملأ وجهه إلا بعد أن وضعت أمى البطن السابع.... نحروا خرافاً وتيوساً ولم ينطفئ لنا موقد....

فى البيت وفى الكُتَّاب وفى السنوات القليلة التى أمضيتها فى المدرسة لم أعرف غير أفعال الأمر وأكُفّاً غليظة محفورة على الخد.... فتملكنى الخوف وسكنتنى الطاعة.

(٤) عناق

كانت لحظة اكتشاف مفاجئ، رغم وقوع التجربة أمامى مرات ومرات.. وكأنى أشاهدها لأول مرة.. ولا أدرى لماذا رحت أربط بين ما يقع أمام عينىّ وبين وقائع حياتى.. ولا أذيع سر إذا قلت أن الكتكوت كان أكثر جرأة وشجاعة. فلم يستسلم للقدر الذى دفنه فى هذه الدائرة المغلقة.. نقراته فى جدار البيضة تتصاعد شيئاً فشيئاً، أحدث فى جدار البيضة ثقباً

وثقبين، تسلل إليه قليل من الضوء، انتشى وهو يطل برأسه من النافذة التى أحدثها فى جدار البيضة.. تصاعدت صرخاته ونقراته، راح ينقر بعنف وشراسة، امتلأ الجدار بالثقوب، اهترأ، وتهلهل، وقفز فرحاناً منتشياً.

هذه القصص لمجدى جعفر
دراسة بقلم: شمس الدين موسى

لعل فن القص المتعدد الأنواع، خاصة ما عرف منه بالقصة القصيرة، أصبح من الشيوع بدرجة ملحوظة، لا يمكن أن يغفلها المتابع، فأجيال القصة تتابع وراء بعضها، وراء غواية ذلك الفن، وربما ذلك يرجع لطبيعة القصة القصيرة، التى رغم اسمها ـ القصيرة ـ إلا أن وعاءها يتسع لرؤى عديدة مختلفة، وقد تحمل الرؤية فى قصة قصيرة، ما يمكن أن تحمله رواية كبيرة أو قد تحمل رؤية يمكن أن تحملها مسرحية أو قصيدة شعرية، لذا أظن أن

هذا السبب يمكن أن نعتبره أحد الأسباب الأساسية، ولا أقول إنه السبب الوحيد، لانتشار فن القصة القصيرة ورواجه بين الأجيال المختلفة. وعندما نقوم بعمل رصد رياضى عملى، فإننا سنجد أن الغالبية العظمى من رواد القص والرواية كتبوا القصة القصيرة، بل نجد أن هناك مسرحيين ارتادوا فن القصة القصيرة، لذا لا عجب أن نرى ذلك الكم من القصة القصيرة التى لا بد تحتاج لنوع من المتابعة، والاستقبال الحسن، حتى يمكن أن يتألق من أصحاب ذلك الفن من يستحق التألق، وتبرز القصص التى تستحق البروز.

ومن أسماء أصحاب القصة القصيرة الموهوبين نجد اسم صاحب المجموعة التى بين أيدينا مجدى جعفر الذى قدم مجموعته التى تشتمل على عدد من القصص، تختلف فى حجمها ورؤاها. فمن الرؤى شديدة الإنسانية إلى القصة الواقعية إلى القصة الأقصوصة، إلى القصة ذات الرؤى الطفولية، إلى القصة التى تحمل عبق الريف بروائحه البكر المنعشة.. إلخ.

ويبدو أن مجدى جعفر ليس حديثاً على فن القصة التى ارتادها منذ أكثر من خمسة عشرة سنة، وذلك ما يتضح من عمق وحرفية الكتابة فى بعض القصص. مع وجود شىء من الميلودراما فى البعض الآخر، وإننى أعتبر القصة بعنوان "مصرى" نموذجاً لذلك، لما تحمله من قدرة الكاتب على الانتقال بالقارئ من زاوية إلى زاوية، ومرحلة إلى مرحلة، مع مباشرة القصد فى القصة، فهو يسمى بطله " مصرى" وتلك التسمية مباشرة داخل القصة التى كتبها وهى ذات أبعاد وطنية. فمزج "مجدى جعفر " فى قصته بين الصراع مع العدو والصراع من أجل الحياة. والبطل مصرى شاب مقاتل وماذا لو كان اسمه محمود، أو صابر، أو جرجس، أو صموئيل ألم يكن يوحى هذا الاسم المقترح بأن صاحبه مصرى؟!

وما آخذه على القصة ذلك الاستهزاء والاستهانة بقوة العدو الإنجليزى، فالمحتل شاذ فى القصة، وكأن هذا الشذوذ إضعاف من قوة العدو، لأن جميع مجتمعات الدنيا تحتوى على الشذوذ، والشواذ منتشرون فى الأرض منذ

قوم لوط، وأظن ما قبلها ويظهر ذلك الضابط الإنجليزى الشاذ فى الحكاية التى رواها جد مصرى " المصرى " ويقوم مصرى بروايتها للجنود تذكراً لبطولات جده الذى يشبهه، وهو كما يقول الكاتب يشبه المصرى القديم فى تدينه، وقوته وصبره، وحكمته، وملامحه.. يحكى مصرى تلك الحكاية على زملائه الجنود الصامدين على خط القناة، وسرعان ما ينتقل مصرى من حكاية جده لحكاية صمود القوة التى كانت فى رأس العش فى الأيام التالية لهزيمة يونيه ١٩٦٧ تلك الأيام كانت شديدة الحزن والأسى وقد عاشها جيلنا والكاتب فى هذه القصة وفى قصص أخرى فى المجموعة لديه القدرة على التصوير والحكى والسرد، وهى أهم عناصر القصة القصيرة.

وتأتى القصة بعنوان " دراما شعبية " التى تصور حال مدينة مصرية صغيرة أثناء الانتخابات، ولقد قام

"مجدى جعفر" بتوصيف حال الانتخابات، ولم يقدم تحليلاً لأسباب لجوء الناس ـ الفقراء ـ إلى من أطعمهم الذى أسماه الكاتب "أعور اليمين والآخر أسماه أعور اليسار.. ويقول الكاتب فى القصة على لسان أحد أبطالها.

"ولما أغمضنا عيوننا اليمنى وسرنا وراء أعور اليسار انكشفت خدودنا اليمنى وتلقينا عليها صفعات موجعة، وكلما تذكرنا أعور اليسار أو رأيناه امتدت أيادينا لاإرادياً تتحسس خدودنا اليمنى، وسرنا وراء أعور اليمين فانكشفت خدودنا اليسرى وكانت الصفعات عليها أشد. و ولما سرنا وراء الذى عينيه فى قفاه تلقينا الصفعات على الخدين..

وفى تلك العبارات نوعاً من العدمية، وربما ذلك هو ما تعبر عنه الجماهير التى تدور الانتخابات وفق حسابات لا تدخل هى فيها، فهى موطئ أقدام الجميع. وأظن أن ثمة خطأ فى الرؤية فالناخبون ليسوا الحكام الذين يركلون الناس ويضربونهم على أقفيتهم، وبدون المرشحين الذين قسمهم ليمين ويسار، الناس تُركل وتُضرب أيضاً. كما أن تسمية أعور اليمين وأعور اليسار بها نوع من الاستهزاء، فمن الأعور هنا الذى يركل أم المركولون الذين لا يرون ولا يعرفون لماذا يركلون.. كان لابد من الوقفة عند تلك التسميات لأن القصة تصور السلبية، ولا يوضح الكاتب

لماذا انحاز الناس إلى من يذبح لهم كل يوم عجلاً، ويطعمهم لحماً مشوياً مع الملابس، والأموال.. وكان لا بد أن تتسع رؤية القصة لفضح الأسباب بدلاً من الاستهزاء.

ولعلنا من النماذج السابقة نرى فى قصص

"مجدى جعفر" نوعاً من الالتزام بمشاكل مجتمعه، سواء أثناء الحرب أو أثناء السلم، وتلك سمة هامة عملت على ذيوع وانتشار القصة القصيرة، لما حبتها طبيعتها من قدرة على تصوير الآنى، بل وتصوير الواقع فى لحظات التغير المختلفة.

* * *

وجدير بالملاحظة أن المجموعة تحتوى على نماذج أعتبرها جيدة للغاية، وتتماس تماماً مع طبيعة القصة القصيرة، لذا جاءت مثل هذه الأعمال على قدر كبير من الإحكام والجودة. وأرى أن القصة بعنوان " الثمن " التى تدور فى عالم الطفولة تمثل ذلك خير تمثيل. فالقصة تصور لحظة انبثاق الوعى داخل عقل ونفس بطلها. لحظة

الاكتشاف، فالاكتشاف فى القصة = الوعى المدرك الذى سيكبر بالصبى الذى يحب ليلى بينما هما لا يزالا فى سنوات الطفولة، فهو يسرق الفواكه من البستانى لكى يرضيها، هى تحب العنب الذى يسرقه لها، وهو يحب البلح الذى لا يقدمه إليها. كان غريمهما فى ذلك " حمد " حارس البستان الذى يطارد الفتى مع رفاقه ممن يجرؤون على اقتناص الفواكه من البستان،كانا يتبادلا الفواكه التى يغتصبونها دون حديث أو إشارة سوى لغة العيون، يدس فى جيوبها البلح الذى تحبه، وهى تدس فى جيوبه العنب الذى يحبه فى غفلة من الزملاء.

ويظل الحال هكذا دون تغير حتى لاحظ الفتى أن ليلى بدأت تضيق بألعاب الصغار وبينهم فتاها، ولما تكرر ذلك الضيق ظن الفتى أن أحداً ضايقها أو أغضبها،وكان اللعب مع الأولاد فقد معناه فى غياب ليلى بالنسبة لفتاها وراح يرقبها عن بُعد، وذات مرة لحق بها بالقرب من البستان، فاستوقفها وراح يحدثها عن أسباب عزوفها، وفجأة يظهر بينهما " حمد " حارس البستان فيهاجمه

ويطارده بقوله : قلت لك ميت مرة يابن الملعونة ما عدت تمر من هنا.. مما جعله يعدو خائفاً منه وراح من بعيد ينادى " ليلى " بأعلى صوت، حيث كان الحارس قد أخذها وبدأ يسير بها إلى داخل البستان، بينما هو خائف ويرتعد من أن يحدث لها مكروه .وظل ينتظر متصنتاً أن يكون الحارس يضربها فيسمع صوت بكائها .وفجأة يجد الفتى ليلاه بجواره وحجرها مملوء بالفواكه.. والجوافة، والعنب، والبلح.. وتقدمها له كى يأكل..

تلك اللحظة هى التى تفجر الوعى، إذ أن " حمد " فضلها عليه لأسباب غامضة بالنسبة له لم تتضح له إلا بعد أن تسلل الحارس بينهما وأخذها منه من يدها إلى داخل البستان..

وأرى أن الأقصوصة " الثمن " أقصوصة جيدة تفجر الوعى لدى القارئ كما فجرت وعى بطلها فى لحظة الاكتشاف وما القصة القصيرة فى رأى إلا نوعاً من الكشف عن حقيقة من حقائق الحياة، بعدها يكون القارئ قد ارتوى تماماً، وحدث له نوع من الإشباع النفسى

والفكرى والعاطفى وهو ما قامت به قصة " الثمن " لمجدى جعفر بعيداً عن المباشرة والألفاظ الرنانة.

وتأتى القصة بعنوان القادم.. لكى تكون واحدة من القصص المتميزة فى المجموعة، فالفلاحون فى القرية يعيشون على الزراعة التى يأكلون منها ويشربون ويكتسون ويصرفون على أولادهم فى المدارس..

بينما الموسم لم يأت بعائده، فالقطن فسد والمزروعات فى بوار بسبب ليس لهم ذنب فيه.. وفجأة يأتى خبر عن ابن القرية الذى تعلم فى الخارج وعلى وشك الوصول، فتعلقت به الآمال فى التغيير فهو المسلح بالعلم ولابد سيطور حياتهم فلم ينس أهله فى الغربة، ولا ناسه وعاد كى يأخذ بأيديهم ويطور مزروعاتهم على أسس علمية مما يخرجهم من البوار والفقر.. وبدأت تحاك حول وجوده الأساطير :

"أنه قادم ومعه هدايا كثيرة، سيعطى كل طفل فى القرية جلباباً وحذاء وقميصاً وبنطلوناً، ويوزع حلوى وشيكولاتة، ويذبح كل يوم عجلاً، يوزع لحمه على أهل

القرية الفقراء، ويدفع لهم مصروفات المدرسة، ويشترى كتباً وكشاكيل.. "

فهو سيحل بوجوده جميع المشاكل المتراكمة فوق رؤوس الجميع، لأنه سيقيم مصنعاً أيضا فى القرية، مما جعل الناس يتدافعون لخدمته ونقل آلاته الحديثة إلى القرية بل وبناء فيلا له ولزوجته القادمة معه..

وفى يوم يجئ القادم " ابن البلد الأصيل. الذى لم ينس أهله أو ناسه متأبطاً ذراع حسناء خواجاية. ويستقبلهما أهل القرية بالطبول والزمور والأغانى

.. وعندما يسأل الشيخ القادم :

– ماذا ينتج المصنع؟

ترد عليه الخواجاية : العطور!

مما جعل الناس يندهشون ويسأله الشيخ :

– وماذا تزرع الأرض؟

– الأزهار والورود!

وبذلك نرى أن القادم لن يحل مشكلة واحدة، فهم يريدون زراعة القمح والقطن والخضروات، فهم كانوا فى انتظار الحلم الذى لم يتحقق كانوا فى انتظار الذى يأتى ولا يأتى.

وفكرة القصة فكرة إنسانية استطاع الكاتب علاجها بشكل جيد للغاية فالناس فى انتظار حل مشاكلهم ويبنون توقعاتهم على هذا الأساس لتجاوز الواقع الردى الذى يغوصون فيه، بينما ما تخبئه لهم الأقدار يمثل المفاجأة.. والعبرة فى القصة أنه لا يجب الاعتماد على المجهول أو الغيب فى حل هذه المشاكل، فالمنتظر أن يأتى ـ ربما ـ بل من المؤكد أنه لن يأتى.

وثمة ملاحظة أخيرة على قصص مجدى جعفر فى مجموعته القصصية أن هناك عدداً من القصص تقوم على الفانتزيا والمواقف الطريفة مثل قصة أم دغش، وقصة العرافة، وقصة الجنى آدميين، التى جاءت تخلو من آية دلالات اجتماعية. وأنا واحد من الذين لا يتقبلون القصة أو الرواية التى تقوم على المواقف الطريفة أو المباغتة

لأننى أتصور أن دور الفن _ والقص _ فى حياة الإنسان أكبر من مجرد بناء أو سرد المواقف الطريفة، ومن المعروف أن الفانتزيا فى القصة أو الرواية لا تستخدم من أجل ذاتها، وإنما تستخدم لخدمة توصيل الموقف الذى يصعب توصيله بشكل مباشر، لذا فأرى أن الفانتزيا مجرد أداة فنية يمكن للروائى أو القاص أو المسرحى استخدامها لتحميلها برؤى عديدة، يستطيع القارئ أو المشاهد للمسرحية استشفافها من المواقف الدرامية التي يزخر بها العمل الروائى أو المسرحى. والدليل على ذلك ما ورد فى القصة بعنوان : الجنى آدميين، التى لا توصل أية دلالات سوى سرد ما ينتاب الناس فى القرية من خرافات، مع رغبة أكيدة فى تصديق تلك الخرافات، حتى تنتهى القصة بمقتل العمدة، ولا ندرى من الذى قتله هل هم أولاده، أم مجموعة إرهابية لم يشر لها الكاتب فى القصة، كما أن القصة لم تظهر أية صراعات بين العمدة، وآخرين يمكن أن توصل إلى الجريمة. ومن هنا نرى أن الدلالة فى القصة غائبة أو غائمة.

وفى النهاية : أرى أن الكاتب يمتلك إمكانيات عديدة فى قصصه من ناحية البناء والحكى، لكن ما آخذه عليه الموقف الذى كثيراً ما يطول به فى بعض القصص، مما يؤكد أنه ينحو فى أعماله نحو كتابة القصص الطويلة والرواية، والمجموعة بشكل عام جيدة وتقدم لنا كاتباً موهوباً.

المؤلف فى سطور

* * مجدى محمود جعفر
* * قاص وروائى
* * مدرس رياضيات ثانوى
* * عضو عامل باتحاد كتاب مصر
* * عضو بجمعية دار الأدباء
* * مدير تحرير سلسلة أصوات معاصرة
* * رئيس نادى أدب ديرب نجم

* * مشرف القصة بالنادى الثقافى بمديرية الشباب والرياضة بالشرقية

* * نشر أول قصة فى جريدة المساء (العرافة) ١٩٨٥

* * صدر له :

١- أصداء رحلة شاب على مشارف الوصول

(مجموعة قصصية - أصوات معاصرة - يناير ٢٠٠٠ م)

٢- أميرة البدو

(رواية - أصوات معاصرة - أغسطس ٢٠٠٠م)

٣- ٥٠ قصة قصيرة " مشترك "

(كتاب الجمهورية _ يونيه ٢٠٠٠م)

٤- حواديت من الشرقية " مشترك "

(كتاب الأدباء - الهيئة العامة لقصور الثقافة)

٥- القصة القصيرة المعاصرة " مشرك "

(أصوات معاصرة _ أبريل ٢٠٠١ م)

٦- ترانيم شرقاوية " مشترك "

(وزارة الشباب والرياضة ٢٠٠١ م)

** تحت الطبع :

١- من دفتر المكابدات

"مجموعة قصصية "

٢- زمن نجوى وهدان

"رواية "

٣- مشاهد من حياة يمامة

"مجموعة قصصية للأطفال "

٤- رؤى نقدية فى نصوص مصرية

"مقالات "

** المراسلات :

١٣ شارع مدرسة التجارة - ديرب نجم - الشرقية

ت : ٣٧٦٧٩٨٦ / ٠٥٥

فهرست

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب ٨١٩٦ / ٢٠٠٣

I.S.B.N 977 - 01 - 8522 - 1